

اقرأ

محمد عبد القنى حسن

بطل السند

دار المغارف بمطز

بطل الإسند

محمد عبد الفتى حسن

بطل السند

الطبعة الثامنة

١٤٢ اقرأ

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م

بيت الأبطال

ليس بطل هذه القصة التاريخية شخصاً من صنع الخيال ،
أو صورة مما خلقه الوهم ، أو اسماً من الأسماء التي يلفها صنّاع
المغامرات في رداء براق يختلب الألباب ، ويشوق الأسماع .

إنه بطل بما تحمله لفظة البطولة من معان ، إنه رجل
عاش في عالم الواقع ، لا في دنيا الخيال ، إنه فتي عربي الدهاء ،
مُضْرى الآباء . ركب الله جسمه من اللحم والدم كما تتركب
بقية الأجسام ، ولكن أودع بين جنبيه نفساً بعيدة المطامح
نائية المطارح . حتى لتكاد الأرض على رحابها تضيق بآماله ،
والدنيا على اتساع شعابها تصغر دون مآربه .

وما عجب أن يكون بطل هذه القصة قد قُدّ على هذا
الطراز ، وفُصل على هذا القالب . بل قد يكون أعجب
العجب لو أنه شذ عن هذا الطراز . فمن الظلم أن لا يشبه المرء
آباءه . ومن يشابه أبه فما ظلم . . .

لقد أنجبت أسرة هذا الفتي الماحد الكريم للإسلام شيئاً

شم الأنوف ببصن الوجوه ، كرام الأحساب ، وكانوا سادة
 في الجاهلية حين كانت الأصنام تتخذ آلهة من دون الله .
 فلما جاء الإسلام توج السيادة فيهم ، وعقد الألوية لهم ،
 ونشر منهم طائفة في شعاب الأرض يفتحونها بلبداً إثر بلد ،
 ويسقطون معاقل الشرك فيها معقلاً بعد معقل . ولا تزال الأرض
 البعيدة السحيقة ترى بهم في أقطارها ، نشرًا لكلمة الله ، وهم
 لا يشكون سيراً ، ولا يخافون بأساً ولا رَهَقاً .

لأنهم بنو ثقيف في الطائف . والطائف رِبَضٌ من
 أرباض مكة ، نضر الله أرضها . وأبردَ نسائم الهواء فيها ،
 وأخرج من رياضها نباتاً مختلفاً ألوانه ، وفاكهة تسقى بماء واحد ،
 ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل . . .

لقد اشتهرت الطائف فوق بساتينها ورياضها بدباغة الجلود
 والأُهب الطائفية المعروكة كما يذكر المحدثان - صاحب
 صفة جزيرة العرب - في وصفها وكأن أُهبَ شبابها وجلود
 أجسامهم المعروكة تُتَوَاشَمُ الأُهب والأدُم التي يصنعونها .
 ففهي من الجلد في المواقف ، والصبر على المكاره . والثبات
 في المعارك ما يذكر دائماً بمثانة الأُهب التي تصنع بأيديهم ،

والتي حازت في رحاب الجزيرة كلها شهرة عريضة ، كما حازت سيوف الهند شهرة في القتال ، والرماح الخطيئة شهرة في المصاولة والنزال .

كانت الطائف جلها أغلب مساكن بني ثقيف . ولهم فيها السيادة والجاه من قديم . وفي بعض رجالاتهم في الجاهلية وجاهة في النسب ، وعراقة في الحسب ، وعظمة في المنابت والأصول . أليس منهم عروة بن مسعود الثقفي الذي عادلته قريش في عنادها ولحاجها محمداً عليه السلام . وتمنت لو نزل عليه القرآن واختصه الوحي ، فقالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟

أليس منهم معتب بن مالك الثقفي الذي بعثه رسول الله إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، ويبشرهم بالدين الجديد الذي جاء يفرق بين الحق والباطل ، ويوضح المعالم بين الظلمات والنور ؟

أليس منهم غيلان بن سلمة الذي كانت له في قومه الرياسة وإليه مقال الحكم ، ومفتاح الأمر والنهي ، فوفد على كسرى أيام كانت وفود العرب تنفذ على دولة الأكاسرة

يفاخرون بآبائهم ، ويذكرون مآثرهم ، ولا يبالون ، وبين
يدى كسرى الصولحان وعلى رأسه التاج ، أن يتنقصوا كل أمة
غير العرب ، وكل لغة غير لغة العرب ، وكل مكرمة غير
المكارم العربية ؟

أليس منهم القاسم بن محمد أبو بطلنا ، وهو الذى كان
والياً على البصرة من قبل الحجاج بن يوسف ، فأحسن الولاية ،
وضبط الأمور ، وأجزأ فى المهم الذى انتدب له ؟

أليس منهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأبوه ابن عم
بطلنا ، وهو من هو فى التاريخ الإسلامى ، وفى توسيع رقعة
المملكة الإسلامية ، وفى تشجيع الفتوح ، وفتح الثغور ، على
الرغم مما عيب عليه من قسوة باللغة فى إراقة الدماء ، وفى الضرب
على الأيدي ، وفى أخذ البرىء بالمسىء ، حتى سكنت له
وللأمويين ثوائر الفتن ، وخمدت نار الخلاف ، وسكنت ريح
الثورات التى كانت تهدد الدولة العربية القائمة بصدع كبير ،
وأمر خطير ؟

فلم يكن بطلنا محمد بن القاسم إذن خارجاً على السنن
الذى بناه آباؤه . لأنه من قوم كانوا يرون الموت على الفراش

عاراً ، وكانوا يرون أن السيادة لا يمنع منها سنٌ ، ولا يقيدُها حسابٌ بعمر . فقد يطول العمر ولا سيادة لصاحبه ، وقد تقصرُ مسافة الأعمار ، ولكنها تزدهم بالهمم الكبار التي لا منتهى لها .

ألم يسد الحجاج نفسه وهو فوق الخامسة والعشرين ، ثم صارت إليه ولاية الحجاز وهو في الثالثة والثلاثين ، ثم انتهت إليه ولاية العراق وهو حول الخامسة والثلاثين ؟ ولقد كان الحجاج يتعجل مراتب السيادة والرياسة كأنه معها على رهان . فهو في أول أمره معلم صبيان بالطائف ، وفي الخطوة التالية نراه شرطياً في شرطة عبد الملك بن مروان ، فتأتيه الرياسة نتيجة لموقف حازم منه على المتقاعدين عن القتال ، فإذا هو رئيس مقدم عند الخليفة الأموي الذي أعطى فُراسة في اختياره الرجال .

لا ! لقد فاق بطلنا محمد بن القاسم ابن عم أبيه الحجاج في السؤدد على حداثة من السن ، بل فاق فتیان ثقیف جميعاً ، بل فاق آلافاً مؤلفة من رجال المسلمين وقوادهم ، بل فاق كثرة كائنة ، وأمة ساحقة من رجال العالم كله ، شرقيه وضربيه ،

قديمه وحديثه ، عُربه وعجمه ، حين فتح الله على يديه
« السند » للمسلمين ، وسنه سبعة عشر عاماً ، لا تزيد ، بل قد
تنقص ببضعة من الشهور . . .

لقد قالوا في عقل الحجاج بن يوسف الثقفي إنه لا تدانيه
عقول الرجال ، فهو راجح الميزان في التفكير والتدبير إذا قورن
بمن عداه من كبار العقول ، ولكن محمد بن القاسم — بطل
الهند والسند — لا يكاد القواد العالميون يبلغون مداه أو ياحقون
غبار فرسه ، حين تنصب للرجال الموازين القسط ، فلا يتحيف
عليها اعتبار المذهب ، أو ميل مع تعصب .

واللهم احفظنا من التعصب ، وخاصة إذا جاء ممن يرجى
منهم الانتصاف ، ويؤمل فيهم العدل ، وتُستظر منهم كلمة
الصدق . ولقد كان أهل ابن القاسم وقومه وقبيله موضعاً
للانتقاص من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . وهو
انتقاص دفع إليه التجنى على الحق ، والإنكار للتاريخ .
والطمس لمعالم المتعالم المعروف ، والاستجابة لدواعي الغضب
حين يميل بصاحبه إلى الهوى ، فيخرجه عن جادة الرأي
الصحيح . . .

فقد ذكر التاريخ والمؤرخون أن عبد الملك بن مروان غضب على الحجاج بن يوسف يوماً لأنه أهان أنس بن مالك خادم رسول الله عليه السلام ، وقد امتد به الأجل حتى أدرك عصر عبد الملك . فكتب إلى الحجاج كتاباً بالغ الشدة . بادى التهديد . واضح السخرية ، حين يقول في بعض مقاطعه : (أنسيت مكاسب آبائك بالطائف . وحفرهم الآبار . ونقاهم الصخور على ظهورهم في المناهل ؟) .

ولعل كلاً ما لم يُخرجه الغضب والسخط عن طريق الصدق والحق مثل هذا الكلام . . . فإن آباء الحجاج وآباء بطلنا محمد بن القاسم هم كما ذكرنا من بنى ثقيف في الذؤابة . وإليهم انتهت الرياسة في الطائف . والوفادة على كسرى في الجاهلية ، والدعوة إلى الإسلام في بداية الدعوة ، حين شكك النبي عليه السلام إلى الله ضعفه وقلة حياته . وحين أغرى سفهاء الطائف الصبيان بالنبي . يرمونه بالحجارة ويتصايحون عليه ، حتى اجتمع الناس عليه وأجلاؤه إلى حائط من حوائط مدينة الطائف . فجلس إلى الجدار بعد أن ذهب عنه بعض الرّوع . وأعلم أن بعض الاطمئنان . واتجه إلى الله قائلاً : « اللهم إليك

أشكو ضعف قوتي ، وقلة خيالي ، وهواني على الناس . . .
 اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى
 من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهننى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم
 يكن بك على غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع .

وفيم ينكر عبد الملك بن مروان سيادة قوم الحجاج وابن
 عمه محمد بن القاسم ، وهؤلاء أهل مكة أنفسهم يشهدون للحجاج
 بالشرف وعظم الأصل حين دخل مكة مخلصاً لها من يد عبد الله
 ابن الزبير ، فقد اعتذر الحجاج لأهلها لقلة ما منحهم إياه
 من الصلّات والأعطيات ، فقال قائل منهم : إنا والله لا نعدرك
 وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القريتين .

وما لنا نحن وللحجاج الآن ؟ إنما جئنا به هنا لأنه مع
 بطلنا ابن القاسم من نبعة واحدة ، ودوحة واحدة ، أخرجت
 للعرب والإسلام أشد الرجال ، وأحد النصال . ولقد كان بطلنا
 محمد بن القاسم — فوق قرابته القريبة للحجاج — صنيعه من
 صنائعه ، وسهماً من سهوم كنانته ، رى به فى أقاصى الهند ،
 ومنازح السند فأبعد المرمى ، وعاد من هناك على الملك الإسلامى
 الناشئ بملك كبير . . .

وعجيب أن يلتقى هنا البطل محمد بن القاسم وابن عمه
الحجاج لقاء لم يكن منه مناص "ولاعنه معدى . ونحن نرد
بطل السند إلى أصله ، وننسبه إلى آبائه . فإذا ذكرت ثقيف
خطر على البال - في الحال - اسم الحجاج الثقفي ، واسم
محمد بن القاسم الثقفي ، كما خطرت على البال أسماء عشرات
وعشرات من بنى ثقيف ، فيهم البر والفاجر ، وفيهم الطيب
والخبث ، وفيهم الشهيد الذي قتل مع أمير المؤمنين عثمان ،
وهو المغيرة بن الأحنس ، وفيهم الذي لم يرو سيفا من الدماء ،
وهو الحجاج .

على أننا سنلتقى بالحجاج هنا أكثر من مرة ، فهو الذي
صنع بطل السند على يديه وعينيه ، وهو الذي أرسله ليخوض
الغمرات في حروب العراق ، قبل أن يبعث به على رأس
الجيش العربي إلى بلاد السند ليحطم فيها الأصنام ، ويرفع
فيها لواء الإسلام .

ولتكن للحجاج عيوبه وخطاياها بجانب آثاره في توطيد
دولة ، ودعم أركان أمة ، فقد كان من دهاة الرجال ، ومضت
به سبيل لا يرجى منها إلا عفو الله . أما ابن القاسم - بطل

السند والهند - فلم يكن ممن لوّثهم السياسة بأوصارها ، أو
لطحّتهم بسواد معايها . وإنما كان بطلاً نقيّاً . ومجاهداً نقيّاً ،
وسيفاً من سيوف الله الماضية . سلّته الله لنشر دينه ، وإعلاء
كلمته .

إن ابن القاسم لم يكن يبنى للأمويين ، كما بنى الحجاج .
ولم يكن يعمل لشخص الوليد بن عبد الملك كما كان يعمل
الحجاج . لقد بنى لله ، وعمل لدين الله ، وتجردت نفسه
من شهوة المطامع في حكم أو ولاية أو عمالة ، فعقد الله النصر
على مفرقه وهو شاب بلغ الحلم أو تجاوزه بقليل . . .

ولقد لقي بطل السند من الجزاء ما لا يتكافأ مع حسن
الصنيع . ولقي من الجحود ما لا يقاس به سوء العرفان ، وقتلته
شبهات النفوس ونزوات الأحقاد ، مصطنعة في ذلك مكيدة
افترتها - بتحريض من الحاقدين الناقمين - أميرة سنديّة هي
بنت ملك السند الذي اخترطته سيوف المسلمين الفاتحين .

أما قصة هذا البطل الشهيد . وقصة هذا الفاتح الغالب ،
وقصة هذه الأميرة التي اتخذت أداة لقتل الشاب العفيف
البريء ، المغامر الجريء . ففيما يلي من الصفحات

أحاديث الطفولة

جلس الشيخ محمد بن الحكم - جد بطل السند - في داره الرجبية بالطائف في ليلة من عام ٧٢ للهجرة يقطع الليل تسبيحاً وقرأناً، ويدعو الله أن يجعل تحت امرأة ابنه القاسم غلاماً سرياً . وكان القاسم - أبو بطلنا المستكن في ضمير الغيب - قلقاً على زوجه نائلة حين جاءها المخاض وهي على حال من الصعقة قد لا تطيق معها آلام الولاد . . . لقد كان الأب مشفقاً على زوجه ، وكان الجسد متشوقاً إلى حفيد له يرى فيه استمرار الحياة في الأحياء والأبناء ، ويحمل اسمه الذي كان أكرم ما تحمل الجزيرة العربية من أسماء .

لقد كان محمد بن الحكم ميمون النقية حين سماه أبوه الحكم باسم محمد ، وحين بُشِّرَ محمد بغلام أسماه القاسم ، كما كان للنبي الهاشمي غلام اسمه القاسم . . واللبلة يتمنى أن يسمى الجنين المضمهر محمداً لو وهب الله لهم غلاماً .

وما خيب الله أمنية المتمنى ، فقد هُرعَت جارية في دار

الحكم إلى محمد بن الحكم وابنه القاسم تزف إليهما بشرى غلام سعيد .

واتجه محمد بن الحكم إلى الله شاكراً ما حقق ، وجرى القاسم والبشر يتلاؤلاً في عينيه إلى الغرفة التي أهل فيها الوليد ، فطبع على جبينه قبلة ، وهو يهتف : محمد محمد !

وانطلقت البشري في كل ناحية من الطائف ، وفي كل دار من دور ثقيف بأن القاسم بن محمد بن الحكم وهب له غلام سري ، وأنه يحمل اسم جده محمد ، فاستقبلت الطائف كلها نبأ البشار : بمرح كبير .

ونشأ الرضيع كما ينشأ الرضيع من أبناء ثقيف ، ولكنه لم يصحب مولده ولا شهور رضاعه خارقة من الخوارق التي تُنسب عادة إلى كبار الرجال ، وعظماء الأبطال . ألم يقولوا إن الحمجاج حين ولد سنة ٤١ هـ لم يقبل ثدي أمه إلا بعد أن لطحوه بدم جدى أسود وطلوا به وجهه ، فأقبل على الثدي بعد امتناع ؟ ثم ألم يقولوا إن القائد الترى تيمورلنك ولد ويدها مخضبتان باللحاء ؟ ومن هنا كان الحمجاج وتيمورلنك سفاكين سفاحين للدماء .

ومن حسن الحفظ أن التاريخ مرمولد بطل السند — محمد ابن القاسم — مروراً هيناً رقيقاً متواضعاً ، فلم يخلق أسطورة حول مولده ، ولم يصنع غريبة حول رضاعه . ولكنه جعله طفلاً كسائر الأطفال ، ولم ينصب حول ميلاده تلك الهالة التي تُعجل موالد الأبطال .

ولكن قد يكون من سوء الحظ أن ميلاد بطل السند والهند مر في هدوء وصمت ونكران ، كما مرت ذكره في هدوء وصمت ونكران . فقد فتح الله به على المسلمين والإسلام شبه القارة الهندية . كانت حياته القصيرة في هذه الدنيا صراعاً وجهاداً في سبيل الله ، ونشراً لكلمة الله . ولكنه مات ميتة الجحود والنكران ، فعُذّب صبراً فيمن عذبهم الخليفة سليمان ابن عبد الملك من قوم الحجاج وأقاربه ، وضمن عليه المؤرخون بالترجمة له ، والإطالة في ذكره ، إلا أخباراً قصاراً ، أطال فيها المؤرخ ابن الأثير بعض الإطالة ، وقصر فيها المؤرخ الطبري كل التقصير ، وذكرها صاحب فتوح البلدان وهو يذكر أخبار الفتوح .

تعالى الله الذي قسمها حظوظاً ، فكما تختلف حظوظ

الناس من الرزق والمال تختلف من الشهرة والصيت . ولو عدلت
الخطوط ما قل نصيب محمد بن القاسم من الاشتهار عن نصيب
عمرو بن العاص في فتح مصر ، وخالد بن الوليد في فتح الشام ،
وسعد بن أبي وقاص في فتح فارس . وطارق بن زياد في فتح
الأندلس .

ولقد كان البطل المسلم قتيبة بن مسلم معاصراً لمحمد بن
القاسم وأبلى في حرب خراسان وتركستان مثل ما أبلى محمد
في السند والهند . ولكن حظيهما من الشهرة مختلفان . فقتيبة
يعرفه الأكثرون وتوضع فيه الرسائل ، وتكتب عنه الفصول ،
وتداع فيه الأحاديث . ومحمد بن القاسم لا يعرفه إلا الأقلون .
ولم تجتمع أخباره المتفرقة القليلة إلى اليوم بين دفتي كتاب .

وفي سنة ٧٥ هـ عين الحجاج والياً على العراق بعد أن صنع
بالحجاز ما صنع ، وادّحر بذلك يداً عند الأمويين ، فكان
له من الدالة عليهم ما أقام له الأمور في العراق على هواه ،
يعين الولاة ويعزهم بكلمة منه مسموعة عند عبد الملك بن مروان .
وهنا نجد القاسم — والد بطل السند — والياً على البصرة في
أوائل ولاية الحجاج على العراق . وهنا ينتقل الطفل محمد

ابن القاسم إلى البصرة حيث أبوه يليها ، فلا يذكر من أرض
الطائف وبساتينها إلا ما تختزنه ذاكرة الطفولة الباكورة من صور
لا نلت أن تأتى عليها الأيام .

ومرت الأيام والعراق مسرح للحوادث ، فالخوارج يقاتلون
ويقتلون ، وشبيب بن يزيد الشيباني ممن " في ثوراته ، والمهلب
أبن أبي صفرة ممن في قتال الأزارقة . وأكبر الظن أن أخبار
هذه الأحداث كانت تطرق سمع الطفل الصغير ، كما كانت
تطرق سمعه أخبار وقائع العرب مع الروم ، ومناوشاتهم مع
الترك بقيادة ملكهم رتبيل .

وبلغ الوليد بضع سنوات حينما بنى الحجاج مدينة واسط
بعد أن تنكر له أهل البصرة والكوفة من العراقيين ، وكان قصده
من بنائها أن ينزل بها جند الشام الذين كان يعتمد عليهم ، ويركن
في الحروب إليهم .

وامتلات المدينة الجديدة الناشئة بسكانها الجدد ، وكان
فيها قوم الحجاج ، وفيهم الطفل محمد بن القاسم الذي شهد في
البصرة ألواناً من الناس غير العرب ، كانوا يفدون إليها للصفق
بالأسواق ، أو لمآرب أخرى من مآرب العيش في الحياة .

وأغلب الظن أنه لقي في البصرة - وهو طفل - قوماً من أهل السند الذين كانوا يجوبون الأمصار، وأغلب الظن أنه سمع عنهم من عجائب الهند وغرائب السند ما طوح بخياله إلى ذلك العالم البعيد الذي تفصله عنه بُحْرانٌ وشطآن...

وهنا في مدينة واسط كان الطفل قد بلغ الحادية عشرة أو زاد عليها قليلاً ، وبدأت أخبار الفتوح تدخل إلى أذنيه فيجد طرباً لسماعها . إنه يسمع أن يزيد بن المهلب قد فتح قلعة كيزك وكانت من أحسن قلاع باذغيس وأمنعها ، ويسمع بعد قليل في العام نفسه أن عبد الله بن عبد الملك غزا بلاد الروم وفتح المصيصة وبني حصنها .

ولم يكن هم محمد بن القاسم أن يستمع إلى أخبار الحروب دون أن يشارك فيها ، فقد تطلعت نفسه إلى خوض المعارك وهو دون البلوغ بكثير ، وهنا نجده في فرقة أرسلها الحجاج لمقاتلة عدوه عبد الرحمن بن الأشعث ، كما نجده في جيش الحجاج نفسه الذي خرج به لقتال عبد الرحمن في واقعة دير الجماجم .

ومن عجب أن الميادين التي تلقى فيها محمد بن القاسم

دروس الكر والفر لم تكن ميادين مع أعداء المسلمين ، ولكن كان بأس المسلمين بينهم شديداً ، فنال بعضهم من بعض . ولعل ابن القاسم سمع أو وعى من بسالة الخوارج واستماتهم في سبيل الفكرة ما هوّن عليه أمر الحياة في نظر نفسه ، ولعل قُربه القريب من أحداث ابن الفجاءة وشبيب وعمران بن حطان قد أصغر في عينيه عظيماات الأمور . فهو ينحوض المعارك مع الخائضين ، ويجيد الطعن والضرب ، ويعرف مواطن الإحجام والإقدام ، فكل خطوة عنده بمقدار ، وكل كرة عنده بميزان .

وأغلب الظن أن محمد بن القاسم لم يكن راضياً عن هذه الحروب التي تلقى فيها أول دروس الجندية ، فلقد ضاق هو كما ضاق كثيرون غيره بهذه التارات والثورات التي لم تضع أوزارها بين العرب ، وماذا ينفع المسلمين أن يقتل ابن الأشعث أو محمد بن موسى بن طلحة ، أو عبد ربه الكبير ، أو بجير ابن ورقاء وغيرهم من عشرات الرجال الذين يزدحم بهم تاريخ حُكم عبد الملك بن مروان ؟

لقد تذكر محمد بن القاسم فتوح المسلمين في أيام عمر ، بل قفزت إلى ذاكرته تلك الأنباء الفضيلة التي ترامت إلى طفولته

الباكورة عن فتح حسان بن النعمان لأفريقية ، وما صنَعَ بالكاهنة التي كانت تملك البربر ، وكانت عظيمة المجلُّ عندهم ، والتي ألَّبت البربر على المسلمين ، فذاقت وبال أمرها على يد حسان ابن النعمان .

وتذكر تلك الأحاديث عن الهند التي كان يحملها التجار وجوَّاب الآفاق عن تلك الأرض الساحرة التي كان ينصبُّ الذهب فيها على إلههم بوذا وسدنته وحراس بيوته ، وأوثانه المنتشرة في كل مكان .

وعز عليه أن يرى في العراق قوماً يقتتلون فيما بينهم ، على حين أن هناك - خارج حدود المملكة الإسلامية - رقاعاً فسيحة من الأرض . تخيم عليها ضلالات الجاهلية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية ، ويعبد أهلها دن دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . ويسودها ظلام كثيف ضرب عليها قرناً وأجيالاً . فحجب عنها منافذ الضياء .

فلأَمَ تظل هذه البقاع الفساح بيداً لا نجاة فيها لسائر ، ولا دليل فيها لحائر ؟ ولماذا لا يتجه المسلمون إلى هذه الأصقاع ؟

عهد المسلمين بالسند

كان الفتى محمد بن القاسم يسمع كثيراً عن السند والهند منذ طفولته الباكرة ، حتى راوده خيالهما وهو حديث عهد بالولادة . ولم تكن السند في ذلك الحين غريبة كل الغرابة على المسلمين ، فقد كان لهم فيها سابقة من غزو في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفي إمارة عبد الله بن عامر على البصرة . نعم ! قبعد العام الثلاثين من الهجرة بقليل ، كان عبد الله ابن عامر يرسل البعوث من ثغر البصرة إلى ما جاوره أو بعد عنه قليلا من ثغور بحر فارس والمحيط الهندي ، وكان ثغر السند مما وقع عليه نظر ابن عامر ليزيد به شيئاً في رقعة المملكة الإسلامية .

وعين ابن عامر رجلا من رجاله ، هو عبد الله بن سوار عاملا له على ثغر السند ، وانصرف إلى حروبه مع قلول الفرس حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم في عهد إمارته على البصرة سنة ٣١ هـ .

وتختفي أخبار السند من مسرح التاريخ الإسلامى بعد غزو ابن عامر لها وولاية ابن سوار عليها فى عهد عثمان ، وتظل عشرة أعوام فى مودعة مع المسلمين ، إلى أن يجىء عام ٤٤ هـ ، ويعين الحكم بن عمرو الغفارى والياً على خراسان ، فيرسل من لدنه محارباً بجلاًداً على القتال ليغزو ثغر السند من جديد ، هذا المحارب هو المهلب بن أبى صفرة الذى اشتهر بعد ذلك بقتال الخوارج وأبلى فى محاربتهم أصبر بلاء .

وتختفي السند من مسرح الحوادث أعواماً آخر ، يكتفي فيها خلفاء بنى أمية بإرسال عامل من قبلهم عليها يجمع خراجها القليل الضئيل ، وقد يكون هذا العامل وضع الطمع من منافسين أشداء له ، يغلبونه على أمره ويريحون الثغر من ولايته ، كما حدث فى أول عهد الحجاج بولاية العراق .

فى سنة ٧٥ هـ - وهى السنة التى عين فيها الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج والياً على العراق - اتخذ عبد الملك عاملاً له على ثغر السند هو سعيد بن أسلم بن زرعة ، ولم يكن سعيد هذا ممن "تهاب سطوته ، أو تخشى صولته ، فقد خرج عليه أخوان ثائران طامحان من ولد الحارث ، وأقلقا

عليه مضجعه بالليل ، وسدّا عليه سبيل النهار . فقتلاه وغلبا على البلاد . فبعث الحجاجُ إلى ذلك الثغر النائر القلق برجل من تميم يتحرق قلبه ، ويتلظى حبّاً للغزو والمجاهدة في سبيل الله ، هو مُجاعة بن سُعر التميمي ، فغلب على الثغر ، وأقر الأمور فيه على حال تسمح له بمواصلة الغزو على نطاق ضيق ، فغزا وفتح أماكن من إقليم قنابيل ببلاد السند . ولكن الموت كان راصداً له فلم يمهل حتى يستوفى العامُ أجله ، ومات بمكران .

كانت الجالية العربية الإسلامية الناشئة في بلاد السند تنسج قليلا قليلا ويقوم بينها من المصالح ما يقتضى سهر العمال عليها وقياسهم بأهولها . وكان هناك جزيرة صغيرة اسمها جزيرة الياقوت يحكمها ملك من ملوك السند ، وكان في الجزيرة نسوة وُلدن فيها مسلمات ونشأن على الإسلام من آباء مسلمين ، ومات هؤلاء الآباء وظل النسوة بلا حام لمن ولا راع ، فأراد ملكُ جزيرة الياقوت أن يتقرب بهن إلى الحجاج فيهديهن إليه ، وأرسلهن في سفينة أخذت تشق طريقها إلى البصرة ، وفيها هي سائرة على وجهها إلى قصدها ، إذا بجماعة من قراصنة الديبل يخرجون في بوازج لهم خفيفة ، فيأخذون السفينة بما فيها

من المتاع ومن فيها من النساء . وهنا يرتفع صوت واحدة منهن
مستغيثة قائلة : يا حجاج ! كما ارتفع بعد ذلك في العصر العباسي
صوت عربية مستغيثة بالخليفة العباسي قائلة : وامعتصماه ...

ولم تضيع أمواج البحر ولا هديره ولا زجاجة رياحه صوت
ذلك النداء الخارج من قلب عربية كسيرة ، في رفقة أخوات
لها كسيرات ، وإذا كان النسيم في رفته يتم على العشاق فيذيع
أخبارهم ، أفلا تحمل الرياح في قوتها صوت الضعيفات
المهيضات إلى من يخف للنجدة ، ويسرع للمعونة ؟ لقد بلغ
ذلك الصوت المتكسر المضطرب مسامع الحجاج ، فيقول
المؤرخون إنه قال : لبيك ! لأن العربي سريع بطبعه إلى النداء ،
فها بالكم إذا كان لنجدة النساء ؟

وسلك الحجاج أول الأمر طريقه الدبلوماسي ، فقد كان
داهية في السياسة والدبلوماسية ، فأرسل إلى ذاهر ملك السند
يسأله تخلية النسوة اللاتي أخذهن قراصنة الديبل إحدى بلاده .
فردّ ذاهر ردّاً لعل الله قصد به أن تصير الأمور في السند
إلى المصير الذي نحن مقبلون على وصفه ، من ضياع مملكة
واسعة ، وفتح بلاد شاسعة ، والتمكين للعرب والإسلام من بلاد

رحيبة الأرجاء ، وإعلاء كلمة الله في بلاد كانت للأصنام
البوذية فيها دولات وسلطان .

لقد رد زاهر ملك السند بأن الذين خطفوا النسوة العرب
لصوص "لا يقدر عليهم ، ولا ينبسط سلطانه على سلطانهم ...
وبذلك مهد للحجاج الأعداء في غزو بلاد التي لا يستطيع
فيها - وهو ملك - حماية ضعيف ، ولا إغاثة لهيف .

فأرسل الحجاج جماعة من المقاتلة على رأسهم ابن نهبان إلى
مدينة الديبل مهد القراصنة ، وكرر لصوص البحر الفاتكين ،
فقتل القائد ابن نهبان ، وانكسرت روح جماعته لمقتله ، فأرسل
الحجاج يستقدم جندياً اسمه بديل من نهمان ، ويأمره أن يسير
إلى الديبل ، يقاتل أهلها من لصوص البحار وقطاع الطرق ،
فلقيهم بديل في شجاعة فائقة ، واستماته بالغة ، ولكن الحظ
قد أخلاه من طريق الفتح للسند ، كما أخلى القائد مجاعة من
قبله ، ليفسح الطريق للقائد الموعود ، والفتاح المنشود : محمد
ابن القاسم .

ومن عجب أن يموت "بديل" بأسباب شجاعته ، وأن تكون
منيته في فروسيته ، فقد نفر به فرسه نفاراً لم يستطع معه له كبحاً ؛

ولا له ردًّا ، فأحاط به العدو من مقاتلة الديبل وأهل السند
فقتلوه . . .

وهنا كانت الأسباب كلها تلح على الحجاج في إرسال
جيش كبير إلى بلاد السند ، يؤدب به العصاة ، ويفتح به
الأرض ، ويحقق نصر الله الذى وعده من ينصره .
فمن يكون ذلك القائد لجيش السند الذى تحبته لها
الأقمار ؟

على الأهبة

دخل محمد بن القاسم على ابن عمه الحجاج مغاضباً حين ترامت إلى أسماع المسلمين هزيمة البعوث الصغيرة التي أرسلت في ولاية الحجاج إلى ثغر السند . وكان قلب الشاب الشجاع يتميز من الغيظ على المصير الذي لقيه ابن نهان ، وبديل ، وهما يريدان الثأر من قراصنة الديبل . وهل عظم نساء العرب عن أن يلدن أشباه القواد من أمثال خالد بن الوليد والزبير بن العوام ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ؟

وانفجر الشاب أمام هيئة ابن عمه الحجاج ، لا يخاف ذلك الداهية الذي أخاف قلوب أهل العراق . وقد كان لصلته ابن القاسم القرية بالحجاج ، ومكان الدالة عليه منه ، ما جعله يُصرح بالمقال ، ويندفع في الكلام ، ويسرف في الملام ، لا خائفاً ولا وجلاً ، وهو يقول :

— مولاي وابن عمي ! لعل مصرع الشهيدان في غزاة السند قد هز أعطاف قلبك ، كما اهتزت له أركان الدولة ،

فماذا أنت فاعل ؟ لقد اختطف قراصنة السند من مدينة الديبل بعض النسوة المهدبات إليك . وردّ عليك ملك السند ردّاً لا يحل العجز قدر ما يحل الاستخفاف بالمسلمين . ونية الغدر بهم . وغداً يجترئ عليك أهل السند . وينتفض على الدولة ملوكهم فيستردون الأرض التي كسبناها من عهد الخليفة عثمان بن عفان . ولقد أجبنا نداء المستغيثة بك . ولكن جنحك لم يحقق نصراً . ولم يذهب ظلماً ، ولم يسترد الأخيذات الضعيفات . ولقد جئتك من فارس لعلّي ألقى الله في أرض السند فأظفر هنالك بأجبر الشهيد . فهلا أرسلتني إلى ثغر السند ؟

— نعم الروح روحك يا بني . ونعم الجهاد جهادك ! وإني مسيرك في جيش على رأسه أبو الأسود جهم .

... والله يا أمير العراق ما يضيرني أن أكون جندياً صغيراً لقائد من قوادك كأبي الأسود ، ففيه بلاءٌ . وفي طاعة . وما أنا ممن يخالف لعاجل مصلحته ، فأبق أبا الأسود بنارس فإن الحاجة إليه ماسة : والخبرة فيه مرجوة ! وقد عرف الطرق وسلكها ، وبلا المواقع واختبرها : وأرسلني أنا إلى السند آتيك

بالأخاخذ اللأئى اختطفهن اللصوص . وآخذ لك وللعرب بثأر
 اثنين من خيرة قواد المسلمين . وبعدها يفعل الله ما يريد ...
 -- ولكنك يا بنى فى مثل سنك الباكرة لا يجوز أن تنعقد
 لك قيادة على جيش ، فإنك فى عامك السابع عشر . وفى
 المسلمين غيرك من تقدمه سنه . ويؤمله عمره ليكون على رأس
 جيش الخليفة إلى السند .

— ومتى كان السن يا أمير العراق حائلا بين المرء وبين
 ما يستحقه من عمل ؟ وليس ذنبى أن تأخر بى الميلاد إلى
 ما بعد العام السبعين من الهجرة : وتقدم بغيرى قبل ذاك
 بعشرات السنين ؟ فاختر بلائى يا ابن العم هذه المرة . وأرجو
 أن يحمذك الاختبار !! فابتسم الحجاج ابتسامة تحمل من
 المعانى ما لا يخفى على الشاب المقدام وقال :

— وكيف يصح يا بنى أن أجعل مصالح المسلمين موضع
 الاختبار لديك ، ما دام فى ذلك مندوحة عنك باختبار غيرك
 من شيوخ الحرب ودهاتها . ممن لهم سابقة قدم فى الميادين ؟
 وفيهم تتعجل يا بنى القيادة وهى آتية لك مع الأيام ؟
 — يا أمير العراق ! لقد حزننى مصرع شهيدى فى بلاد

السند ولم يبرح خيال الدم المتقطر منهما يورق ليلى ، ويُقلق
نهارى ، فهلا جعلتني لهما ثالث الشهداء ؟

— يا بنى ! أخشى أن تقول الألسنة إن ابن يوسف
الثقفى يحابى أهله ويصانعهم ، ويؤثرهم بالمناصب على غيرهم
من أبناء المسلمين .

— ولكننى يا أمير العراق لا أطلب منصبا ، ولا أطلبك
برزق ، وإنما أطلب منك أن تعيننى على موته فى سبيل الله ،
فأعنى على الموت يهب لك الله الحياة !

— تأبون يا بنى ثقيف إلا أن تسبقوا إلى الفضل ولو على
أطراف الرماح ! فخذ يا بنى سيفك وامض لوجهك على بركة
الله ، وكن — من الآن — عاملا لبنى أمية على ثغر السند .
وسياتيك كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك بإقرار العهد لك .

* * *

ومضى محمد بن القاسم والفرح يملأ مسالك نفسه ، وأخذ
يعد للغزو عدته ، ولم يتركه الحجاج يستقل وحده بتدبير أمر
الجيش الحديد ، ولكنه أخذ يجهزه بكل صغيرة وكبيرة مما يحتاج
إليه فى ساحة القتال ، بعيداً عن قواعد الإمداد ، وراكز التكوين ...

ولم يترك الحجاج صغيرة إلا أمدَّ بها ذلك الجيش الذي يعلق عليه المسلمون أكبر الآمال . حتى الخيوط والمسالك والإبر مما يحتاج إليه في رفو الثياب ، ورتق العياب ، كانت مما تجهز به الثقي جيش السند المتأهب للقتال .

وأعجب من هذا أن يظن الحجاج إلى حب العرب للخل " في طعامهم ومعيشتهم ، يطبخون به ويصطبغون ، والخل في بلاد السند ضيق شحيح ، فكيف سبيل جيشه إليه وهو مما يتقل حمله في الدنان على ظهور المظايا ومتون الدواب ؟ لقد فكر الحجاج في حيلة لطيفة يزود بها جيش السند بحاجته من الخل في غير مشقة من الأحمال الثقالة ... لقد أمر بالقطن المحلوج فنقع في الخل ، ثم جفف في الظل - حتى لا تبخره الشمس - ووضع خفيف الحمل مع ما وضع من الذخيرة وميرة القتال ، وسير الحجاج مع البطل الشاب ستة آلاف مقاتل تتحرق

نفوسهم إلى الشهادة في سبيل الله ، وقد خرجوا من ديارهم على نية البيعة لله ولدينه ، فإن قتلوا فلهم أجر المجاهدين ، وجزاء الشهداء الصالحين ، وإن عاشوا فإن حياتهم لله موهوبة ، لا يضربهم أن يسبق إليها الدعاء ، أو يتأخر بها النداء ...

صنم محطم

اندفع محمد بن القاسم ووراءه جنوده كالسهم يمشى إلى رميته في مضاء وتصميم وقصد للهدف لا يحيد عنه ولا يميل . وخرجوا تسيل بأعناق مطاياهم البطائح ، فسار محمد إلى مكران فأقام بها بضعة من الأيام ، ثم أتى مدينة قنزبور ففتحها ، ولم يجد في فتحها كبير عناء ، ثم اتجه إلى مدينة إرمائيل ، فلقى فيها مقاومة لم تقوَ على حماسة جيشه وصبرهم في القتال فسَلَّمت المدينة .

وكان تعريج ابن القاسم على هاتين المدينتين في طريقه إلى مدينة الديبل هو من باب التمهيد للغزوة الكبرى ، فضى بعد فتح إرمائيل على غايته إلى المدينة التي كان منها متلصصة البحار وقرصانه - الديبل - فنزل بها وكان اليوم يوم جمعة ، وكأنما كان هو والسفن الإسلامية التي تحمل السلاح والأداة وبقية الرجال على ميعاد ، فوافته قطع الأسطول الأموى في اليوم نفسه . والتقى الجمعان من بعوث البر وبعثة البحر في مدينة

الديبل ، وخذلق القائد الشاب ، وأنزل الناس منازلهم ، على عادة العرب حين يقاتلون .

ونصب ابن القاسم منجنيقاً ضخماً أحضره معه في جملة عتاده . يقال له العروس . وبلغ من ضخامته أن خمسمائة رجل كانوا يدبرونه في ساعة الرمي . واتخذ القائد الشاب موضع العروس أمام صنم هائل الحجم ضخم البناء ، تهوى إليه أفئدة العباد من أهل الهند والسند ، يعظمونه ، ويقربون إليه القرابين ، وينحرون له الذبائح على نحو ما كان يفعل العرب في جاهليتهم قبل أن يمس الله عليهم بالإسلام ، والخروج إلى النور من الظلمات .

وكان صنم الديبل — أو بُدُّها كما أسماه العرب الفاتحون — ترتفع فوق هيكله الضخم سارية عظيمة ، عليها راية حمراء واسعة الأطراف ، حتى لقد بلغ من سعة رقعتها أن الريح إذا هبت عليها كانت تدور فتطوف بالمدينة المقدسة في دورانها فتَهْفُو إليها أفئدة الألوف المؤلفة من أهل المدينة . وقد ركزت هذه السارية العالية على منارة عالية فوق بناء البد العظيم .

وكان مما وضعه ابن القاسم من خطة للغزو أن يقصد هذا الصنم الهائل الضارب في عنان السماء كأنه جبل يطل على

الأرض من شاطئ أو يزحم النجوم في مدارها ، فيصيب منه
ثلمة ، فتشلم معه حيثل قلب المقاتلين من أهل السند ، وتنكسر
أرواحهم ، وتذهب أنفسهم حسرات على المعبود المقدس الذي
يعظمونه ويجلونه ، وينزلونه منازل التقديس .

ولقد عرف ابن القاسم ذلك فيما عرف ، مما كان يتلقفه
من أخيار السند وهو في البصرة طفل طرى الإهاب . فأحكم الخطة
لذلك ، وجلب معه المنجنيق الهائل : العروس ، حتى لا تقف
في سبيله مناعة حصن ، ولا متانة جدار ، ولا ارتفاع أسوار ...
وحاصر البطل الشاب ما حول الصنم العظيم من جميع أطرافه ،
وأطال الحصار حتى ضاقت نفوس أهل البد عليهم ، واستياسوا
من الخلاص . والتقت أذرع الرماة في مراى العروس كأنها
ذراع رجل واحد ، ورموا سارية البد بحجر ضخيم ، فانكسرت
السارية وانحنت قامتها المرتفعة أمام منجنيق هائل . فتطير
المقاتلون من السند بذلك وتشاءموا ، وخشوا أن يكون ذلك نذيراً
بدوران الدائرة عليهم . فخرجوا مندفعين من داخل المعبد ومن
أهباء البد ومضايقه ، وحملوا على المسلمين حملة المستأيس ،
ووثبوا وثبة المضيق عليه حين يشتد به الأمر ، وتنسد عليه سبل

النجاة ، فيضرب على غير هدى لعله يلتمس مخرجاً من ضيق ، أو منفذاً من محبس . . . فهجم عليهم ابن القاسم برجاله هجوم الواصلين من النصر ، وردهم إلى داخل الصنم محصورين لا يستطيعون خروجاً إلى الموت الذي ينتظرهم خارج البدن ، ولا يقدرّون على بقاء داخله ما دامت اللخيرة محدودة ، والزاد بمقدار .

وكانت جدران البدن من الضخامة وعلو السميت بحيث لا يصل إليها متسلق إلا إذا صعد إليها على سلم منصوبة ، فأمر ابن القاسم بالسلام فنصبت . ولكن من يصعد إليها ليلقى ضربة من عدو راصد داخل الصنم ، أو رمية من خاتل وراء الأسوار ؟

وهنا يستحضر المسلمون ما حدث في واقعة حصن بابلينون بالفسطاط ، أيام الفتح العربي لمصر على يد عمرو بن العاص . ألم يستعص ذلك الحصن العتيق الرصين على العرب الفاتحين ، فإذا بالزبير ابن العوام وقد أتى بسلم فصعد عليه ، حتى أوفى على الحصن من شاهق ، وهو مجرد سيفه حذر المباغت ، فكبر وكبر معه المسلمون تكبيرة رجل واحد ، ففتح الحصن

عنوة ، وانقادت مقالده للعرب بعد طول شماس ؟

نعم ! لقد كان في مُقاتلة المسلمين بالسند من يذكر
هذا الموقف لابن العوام في فتح مصر . فلم لا يكون هنا ابن
عوام آخر ، ما دام الإسلام يصب رجاله على غرار كريم ؟
لقد نهض رجل من قبيلة مُراد من أهل الكوفة . وفعل كما
فعل ابن العوام في أرض الأهرام !

لقد كان هذا الفتي المرادى أول من صعد على السلم وتبعه
الرجال ، ففتح حصن الصنم عنوة واستحر القتال ثلاثة أيام ،
لم يذق المتحاربون فيها طعماً للشراب والطعام والمنام .
وما أعجب التاريخ أحياناً حين ينسى أسماء الرجال عن
غير قصد ولا نية في إغفال ! فإنه ضمن على هذا الفتي المرادى
السابق إلى تسور الحصن بأن يذكر اسمه ، ولكنه اكتفى
من ذلك برده إلى قبيلته من بني مراد . . . وما يبالي المجاهد
حين يجاهد فيقتل في سبيل الله أو يُقتل ، أن يذكر اسمه أو
يهمل ، أو يسجل اسمه أو يُغفل ، ما دام أدى لله والضمير
والواجب ما عليه من حقوق واجبة الأداء .

لقد سقطت مدينة الديبل وسقط معها صنمها إلى حيث

لا رجعة لأوثان ولا عبادة لأصنام . وكان ذلك في سنة ٨٩ من الهجرة . واستبد الخوف بوالى مدينة الديبل وعاملها السندى من قبل الملك ذاهر ، فأسلم ساقيه ممعناً في الحرب ، ملتصقاً بالنجاة بنفسه . وأنزل ابن القاسم أربعة آلاف من رجاله في المدينة التي كانت بالأمس القريب واطرة للمسلمين بخطف جماعة من نسائهم وهم في الطريق إلى أمير العراق

واختط محمد بن القاسم في المدينة المغلوبة على أمرها خططاً وأحياء للمسلمين ، لينزلها أربعة الآلاف من جنده النازلين . وأقام بها مسجداً يرتفع من مثلثته التكبير ، باسم الله العلي الكبير ، بعد أن سككت أصوات الطواغيت

على ظهور الأفيال

ترك بطل السند حاميته القوية في مدينة الديبل ، بعد أن فتحها بالسيف عنوة ، وسار عنها إلى مدينة البيرون ، وهي المدينة التي ينسب إليها الفيلسوف المؤرخ المسلم أبو الريحان البيروني من علماء القرن الخامس الهجري .

ولم يدر ابن القاسم ، وهو في طريقه إلى البيرون — أن أهلها كتبوا إلى الحجاج في العراق مصالحين ، فإذا ببطلنا يقابل أهل هذه المدينة المسالمة وهم يخرجون إليه بالميرة ، ويمدونه بالمعونة ، وفاءً بعهد مصالحتهم ، وإذا بهم يفتحون له المدينة على ذراعها ، فيدخلها ابن القاسم بلا قتال ولا نزال . فيسبر عنها بطل السند ، وهو لا يمر بمدينة إلا فتحها .

وآثر بعض أهل السند العافية على قتال لا يخرجون منه إلا بكثرة المقتلة فيهم ، ووطأة الهزيمة عليهم ، ففضلوا المصالحة على الوقوف في معركة خاسرة . ومن هؤلاء أهل مدينة مريديس ، فكانوا أحقل من أن يبادلوا بحرب لا نهاية لها إلا الخسارة عليهم ،

والنكال بهم ، فصالحوا البطل الشاب ، ووظف على مدينتهم
الخراج . أما أهل مدينة سهبان فقد ركبوا رءوسهم ، فكان
جزاؤهم أن فتحت بلدتهم عنوة ، بعد أن أعمل المسلمون فيهم
سيرفهم الظمأى إلى زى الدماء . . .

وقد أثمر الدرس القريب الذى ألقاه ابن القاسم على أهل
سهبان ، فخرج منه أهل سدوستان بالعافية ، بعد أن طلبوا
الأمان والى المح ، فأمنهم بطل السند وآمنهم من خوف ، ووظف
عليهم خراجاً قبلوا أن يدفعوه عن يد وهم صاغرون .

كان عمال ذاهر ملك السند وولاته على الأقاليم يسقطون
رجلاً إثر رجل ، ولم يستطيعوا مغالبة هذا الشاب الجريء
الذى وفد إلى بلادهم وحشو ثيابه همة لا تصدها عقبات ولا
أحوال . أما الملك ذاهر نفسه فكأنما كان فى غفلة عما أصاب
ملكه الذى بدأت تنهار قواعده ، لقد كان منصرفاً إلى أمواله
وجواريه فيما وراء نهر مهران ، وكان ذلك الجيش العربى النازل
على أرضه لا يستحق منه أدنى التفات ، ولا أقل اهتمام ، وكان
أنباء سقوط الديبل ، ومصالحة بيرون ، رفح سهبان ، وتسليم
سدوستان وإيغال العرب الفاتحين فى البلاد لم تصل إلى مسمعه

المشغول بأنغام القيان . . . أو كأنه سمع وصاك النبأ بعد النبأ
أذنه ، ولكنه مستخف بالعرب مستصغر. لأمرهم : معتزم
لقاءهم في موقعة تدور فيها الدائرة عليهم في حسابانه !

وعبر ابن القاسم نهر مهران فإذا به يلقي الملك ذاهر وهو
على فيلٍ مُطهم كأحسن ما تُطهم الجياد ، وعليه عدة كأوفى
ما تكون عدة الخيل ، وحوله الفيلة بركبانها : تحيط به إحاطة
السوار بالمعصم ، وتقيم من حوله الأسداد . حتى لا يناله عدو ،
ولا يظفر به مجارب ، ولا يستهدف منه مقتل لنبل نابل . أو
طعن طاعن . فهم والفيلة الضخامُ بطانة للملك : وسداد له
من كل ثغر ينفتح عليه في معمعان القتال .

ورأت الخيل العربية هذه الفيلة الضخمة فنبضت بها
كرائم عروقها . . . ورأت الفيلة المهولة المفزعة هذه الخيل
كأنها جن تحمل على صهواتها بشراً كالجن ، فجبن جنونها ،
وسمع من جماعتها صئاً^(١) غطى على تصهال الخيل ، حتى
استحالت المعركة إلى قطعة ترعد بالهزيم . . .

واقبتل الجمعان قتالاً لم يُسمع بمثله كما يقول المؤرخون .

(١) الصئ : صوت الفيلة .

ولم تثبت الفيلةُ ولا فيالوها في مقام تنزل فيه مواطئُ الأقدام ،
وتتخلخل فيه السيقان ، وتنخلع له قلوب الشجعان . ورأى
الملك المغلوب ذاهر أن ظهر الأرض أثبت من الفيل ظهراً ،
فترجل بالدروع تدفع عنه من الضرب ما تقدر على دفعه ،
إلى أن سقط لإعياءٍ فقتل بعد أن مالت شمس النهار إلى غروب .
وكان مقتل الملك ذاهر بيد فارس عربي غصّ الإهاب ،
شديد البأس ، شجاع النفس ، خاض الصفوف غير مُبالٍ
بما هو مُقبل عليه . وفرج الجموع غير عابئ بما قد يتعرض
له . فلما جندله بسيفه قال مفاخرأ :

الخيل تشهد يوم ذاهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أننى فرجت الجمع غير مُعرد^(١) حتى علوتُ عظيمهم بمهند
فركته تحت العجاج مُجندلا متعفر الحدين غير موسد...

وهنا لم يغفل التاريخ اسم قاتل الملك ذاهر . كما أغفل اسم
الفتى البحرى الذى كان أول صاعد على السلم ليمسور حائط
البدء . فقد روى أحد المؤرخين أن اسمه القاسم بن ثعلبة
ابن عبد الله الطائى .

(١) مرد الرجل الطريق إذا انصرف عنه .

وكان مقتل ذاهر ملك السند إيذاناً بغلبة العرب الفاتحين على بلاد السند كلها ، وإعلاناً بأن مقاومة أهل البلاد غير مجدية ، بعد أن قتل ملكهم ، وتفرقت جموعهم . . .

ومضى بطل السند الشاب ممعناً في البلاد ، لا يصدده حصن ، ولا تقف في طريقه عقبة ، ولا ترهبه فلول جيش مخذول ، فاتجه إلى مدينة راور وكان الملك ذاهر قد اتخذها مرتعاً لإحدى نساؤه ، ففتحها ابن القاسم عنوة ، بعد أن رفضت المصالحة . وأخذ الأمان ، وخافت امرأة ذاهر أن تقع أسيرة في يد العرب فأحرقت نفسها وجواربها وجميع ما تملكه من طائل المتاع ، وغزير الأموال ، ونفائس الألفاف .

على أن امرأة ذاهر لا تهمنا في هذا السياق إلا على قدر ما يسمح به الخبر المروى . فهي قصة انتحارها بإحراق نفسها وجواربها لا تحمل للعرب مغزراً لغامز ، ولا مطعناً لطاعن . فقد كان المسلمون الفاتحون أشد الغزاة حفاظاً على الحرمات ، وصيانة للأعراض ، وتصوناً مع النساء ، حتى كانت آدابهم في القتال ، وأخلاقهم في الحروب ، مما يصح أن يكون دستور المقاتلين على العصور ، ما دام الله قد كتب على الناس

أن لا تنزع نوازع القتال من نفوسهم

فلا حاجة لقائل أن يقول معتذراً من فعله امرأة ذاهر بأن ذلك الذى صنعته هو من عادات أهل الهند فى قديم الزمان .

أما الذى يهمنى فى قصة بطل السند والهند فهو قصة «سيتا» ابنة الملك ذاهر ، فقد أحبها ابن القاسم ، ولكنه ما تعلق منها بريية ، ولا هم معها بما يهيم به المحبون حين يُغضى الحب على أسماعهم وأبصارهم ولكنه صان كرامتها وعففتها كأكرم ما تصان بنات الملوك . إلا أن مصرع أبيها على يد رجل من رجال ابن القاسم قد أوغر صدرها ، وملأ قلبها ، فخامرت مع الفلول المتناثرة من أمراء البلاد ، وشاركت فى مريب الخطط بما لم يدع مجالا لابن القاسم فى تبرئتها من الخيانة لخطط الفتح ، فأرسلها أسيرة إلى بلاط الأمويين حيث كان لها شأن مع بطل السند والهند سنعرفه عما قليل

ثغر بيت الذهب

لم تقف بطل السند غاية بعد مقتل الملك ذاهر . وكان على يقين أن بلاد السند لن يقف معقل فيها ، ولا حصن بها ، ولا مدينة من مدائنها في طريق فتوحه . وماذا يبقى للجماعة — مهما كان أمرها — بعد أن كانت جموعها تنهزم في كل لقاء أمام جيش غالب بإيمانه ، قوى بيقينه ، خرج في الله غازياً ، ولدين الله داعياً ؟

مضى ابن القاسم في طريقه إلى مدينة "برهنا باذ" العتيقة ، وكان لها في السند مكانة تاريخية مرموقة ، وقد جمع فيها المنهزمون من أهل السند ما بقي من فلولهم ، ليلاقوا بها البطل الذي تعود لقاء الحيوش لالقاء الفلول . . .

وقاتلهم ابن القاسم قتالاً أزالهم عن مواقعهم ، وأفنى كثيراً منهم ، وخرّب كثيراً من ديارهم .

وغادر البطل المدينة العتيقة وهي أطلال متخربة ، ورسوم متداعية ، ومضى على وجهه من الغزو يريد مدينة الرور ، وفي

طريقه إليها لقي أهل مدينة ساوندى ، وقد صفرت أيديهم من السلاح والرماح وعدة القتال ، ورفعوها مطالبين بالأمان بعد الذى بلغهم من أنباء المدن السندية المتخربة بلداً عقب بلد ... فأعطاهم ابن القاسم الأمان ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، فنزلوا على الشرط راضين ، ثم دخلوا كلهم فى الإسلام بعد ذلك بقليل .

وأصبحت أرض السند بعد ذلك تدنو للبطل ابن القاسم ويُطوى له بعيدها . . . وإذا هو عقب ذلك بمدينة بسند ، فلم يرفع أهلها السيوف إلا ليطووها فى الأغمار ، طلباً للصالح الذى لم يبخل به عليهم .

وهنا كانت مدينة "الرور" على مرمى النبال من جيوش المسلمين ، وهى مشرفة على جبل من جبال السند ، والطريق إليها وعرة ، والمرقى إليها عسير ، فظل بطل السند ضارباً عليها الحصار شهوراً ، إلى أن صالحه أهلها فقبل منهم الهامح ، ومضى إلى مدينة "السكة" ففتحها ، ولم ينته به المطاف عندها ، وإنما جاء إلى نهر بياس فاجتازه فى طريقه إلى الملتان .

ولقد كانت الملتان أحد الأهداف العظام التى يرمى إليها

ابن القاسم من غارته على السند ، فهي مدينة كبيرة حقيقة ، ولها من التقديس عند أهل السند ما يفوق مدينة الديبل ، ففيها البدن العظيم أو الصنم الكبير ، الذي تُهدى إليه الأموال ، ويأتى الناس إليه من كل فج عميق ، وتهوى إليه الأفئدة ، يحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ، ويتقربون بالقرابين إليه ، ويتزاحمون بالمناكب كأنهم فى ساعة الحشر للعبادة فيه . وتزدحم ساحاته وأبهاؤه وحماه بالوفود التى لا ينقطع سيلها ، والحجيج الذى لا يسكت تدفقه . وقد بلغ من ضخامته ورحابته أن عدد سدنته والقائمين على خدمته بلغ ستة آلاف كاهن ، يقيمون فيه الليل والنهار ، ويستقبلون فيه القادم ، ويودعون المفارق ، ويقيمون فيه الشعائر والمناسك ، فهو مدينة فى مدينة ، وهو بلد فى بلد . . .

جاء ابن القاسم إلى مدينة الملتان بما تحمله من حاضرها وغابرها ، فقاتله أهلها فحاصروهم وشدد عليهم الحصار ، وظن أنه لن يطول بهم الأمد ، فستفد ميرتهم من الطعام المخزون ، والماء المحفوظ ، وهناك سيلجئهم الجوع والعطش إلى التسليم . ولكن الحصار طال . إلى أجل تأكد معه المسلمون أن الماء ليس

مخزوناً عندهم ، وإلا لنفد من عهد بعيد ، ولكنه يأتيهم داخل الحصن من قطع من الماء يدخل المدينة من مكان مخبوء . . وهنا تظهر الخيانة من رجل من أهل البلاد ، فيدل المسلمين على قطع الماء فيمنعونه ، فيظلموا المحاصرون ، حتى ليبلغ الظلم بهم حد اللهاث ، فلا يجدون مخرجاً لهم مما هم فيه غير أن يسلموا ويلقوا بأيديهم ، وينزلوا على حكم البطل الجريء الذي قتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، وأسر سدة البد العظيم ، وهم ستة آلاف كما سلف القول .

ودخل الفاتحون غُرف المعبد في الصنم الكبير ، فإذا هم يصيبون هناك ذهباً كثيراً مما حمله زوار ذلك البد العتيق ، فتكدس على مر السنين . . . وهنا أمر بطل السند أن يُجمع هذا الذهب في بيت طوله عشرة أذرع ، وعرضه ثمانية أذرع ، يُلقى إليه من كوة في وسطه ، ومن هنا سميت الملتان : ثغر بيت الذهب ، تمييزاً لها من بقية الثغور . . .

وفي صباح يوم من الأيام القريبة من فتح الملتان والاستيلاء على بيت الذهب فيها ، كانت سفينة من سفن المسلمين تخفق شُرْعُها في الهواء ، وتضرب مجاديفها في ماء بحر الهند ، متجهة

نحو بحر فارس لتلقى بأوساقها في ثغر البصرة ، حيث يبلغ بها
المطاف إلى دار أمير العراق : الحجاج بن يوسف .

ونظر الحجاج فيما حُمل إليه من ثغر الملتان مما بعث به إليه
بطل السند محمد بن القاسم ، فكان مائة وعشرين ألف درهم ...
ونظر في النفقة على فتح ذلك الثغر فكان مجموعه ستين ألف
درهم . . . فقال : ربحتنا ستين ألفاً ، وأدركنا ثأرنا ،
ورأس ذاهر . . .

هدايا من السند

ظل بطل السند - محمد بن القاسم - بعد سقوط الملتان سنة ٨٨٩ إلى ٩٥ هـ وهي السنة التي مات فيها الحجاج - أمير السند كلها لا ينازعه فيها منازع ، ولا يقوم سلطان بجانب سلطانه ، ولا تقضى الأمور إلا بكلمة منه ، ما عدا مدينة الكيرج التي كان ملكها يسمى دوهرا . فقد بقيت في غير حكم العرب الفاتحين إلى أن كان لها شأن مع محمد بن القاسم بعد وفاة الحجاج بقليل .

وكأنما كتب الله لبطل السند أن يلتقى بعض الهدوء ، ويندوق طعم الراحة في هذه السنوات الخمس بعد أن دانت له السند كلها بالطاعة ، وأقرت له بالفتح . وسلمت عليه بالإمارة .

وانسابت الأموال في يد البطل المغامر . وأفاء الله عليه وعلى المسلمين من الخير . وفتح لهم من الثراء ما استبد الملوك في جمعه . وما جهد الكهان في تكديسه . وتفتحت كنوز

السند أمام المسلمين بما تحمله من تاريخها الطويل .

وَفَتَحَ ابْنُ الْقَاسِمِ دَارَ الْإِمَارَةِ فِي السُّنْدِ عَلَى مَصْرَاعِهَا
يَسْتَقْبِلُ الْوَافِدِينَ ، وَيَكْرُمُ النَّازِلِينَ ، وَيُعْطِي عَنْ سَخَاءِ فِيهِ
لَا عَنْ تَسَاخٍ ، وَيُظْهِرُ أَنَّ الْكَرَمَ طَبِيعَةٌ فِي نَفْسِ بَنِي ثَقِيفٍ ،
فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ " الْحِجَاجَ " كَانَ يُعْطَى بِلَا حِسَابٍ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُ
كَانَ يُضَعُّ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ خَوَانٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَفِي سَائِرِ
الْأَيَّامِ خَمْسَمِائَةَ خَوَانٍ ، عَلَى كُلِّ خَوَانٍ عَشْرَةُ أَنْفُسٍ .

وإذا صح ما استظهرناه من كرم بني ثقيف فإن بطل
السند جاء على غرارهم ، ونسج على منوالهم ، فقد أعطى حتى
مَدَحَهُ الشعراءُ بأجزاء العطية ، قَدَّرَ ما مَدَحُوهُ بِصِدْقِ الْبَلَاءِ
فِي الْمَعَارِكِ ، وَحَسَنَ الثَّبَاتِ فِي الْمَوَاقِفِ . فَهَذَا أَبُو الْجَوَيْرِيَّةِ
الشاعر يمدحه فيقول :

قُلْ لِلَّذِينَ بِوَسْطِهَا وَبِغَيْرِهَا مِنْ مَسَائِلِهِ تَرْدٌ وَتَنْجَحُ
السُّنْدُ إِثْتُ السُّنْدِ إِنْ أَمِيرُهَا بَحْرٌ يَطْمُحُ عَلَى الْعَفَاةِ وَيَطْفَحُ
مَا زَالِ يُعْطَى قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا حَتَّى حَسِبْتَ أَبَا عَقِيلٍ يَمْزَحُ
فَهُوَ يُعْطَى عَلَى كُلِّ حَالَةٍ : قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، كَمَا كَانَ هَرَمُ
ابْنِ سَنَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُعْطَى عَلَى الْعَلَاءِ . . .

والشاعر أبو الجويرية في هذه الأبيات يُغري أهل مدينة واسط العراقية - التي بناها الحجاج - ويغري أهل غيرها من المدن بأن يقصدوا بطل السند وأميرها محمد بن القاسم ، فهو بحر يفيض بالعطاء ، ويظم على مُعتميه وقاصديه ، وما زال يعطى على اختلاف الحالات حتى جسيبنا العطاء عنده ضرباً من المزاح . . .

وليس لدينا من أخبار عطايا بطل السند للشعراء والمعتفين ما تطمئن إليه النفس ، فإن أخبار الرجل نادرة مبهثرة كما سبق الكلام ، وهي في جملتها لا تصور البطل من ناحية صفاته وعطائه ، كما أن ما قيل فيه من شعر المديح بالشجاعة والبسالة لا ينهض له بفضل أو لا يقوم له بجزاء . فلقد كان من حقه على شعراء عصره أن يطيلوا المديح فيه ، وأن يكثروا القول في فتوحاته ، ولكن حظ الرجل مع المؤرخين كمحظه مع الشعراء ، فإذا كان نصيبه ونصيب سيرته من التاريخ ضئيلاً قليلاً ، فإن نصيبه من شعر الشعراء أقل وأضال . . .

على أن أغرب ما قرأناه عن هدايا بطل السند من السند هو ذلك الخبر الذي ذكره أبو النعمان الأنطاكي حيث قال :

(كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مَسْبُوعَةً يتعرض للناس فيها الأسد . فلما كان الوليد بن عبد الملك شكى ذلك إليه . فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس . فتنفع الله بها . وكان محمد بن القاسم الثقفي . عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس . فبعث الحجاج إلى الوليد منها بما بعث من الأربعة آلاف) فابن القاسم يبعث آلاف الجواميس من السند إلى الحجاج . والحجاج يبعث منها أربعة آلاف إلى أرض ذات سباع . فتستحيل تلك المسبعة إلى أرض زراعية . تُغَلُّ أطيب الثمرات . ويبدلها الله من خوفها أمناً . . .

وَيُطْرَفُ بطل السند وَيُغْرَبُ في هداياه كما أغرب وأطرف في فتوحه . . وهو هذه المرة يهدي إلى الحجاج من بلاد السند فيلا . فيُجَاز به البطائح في سفينة . ويُخْرَجُ في مَشْرَعَةٍ نسبت إليه من ذلك الحين . فقيل : مَشْرَعَةُ الفيل . . .

ومرة ثالثة نصادف بطل السند وهو يبعث إلى الحجاج بهديه بشرية مما أنبتته أرض السند . . . إنه يبعث إليه بجماعة من الزُّط السند . فيبعث بهم الحجاج إلى الشام . ويأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بنقلهم إلى أنطاكية . . .

الحق أن هدايا بطل السند من السند ثقيات الأوزان ،
 ضخام الأبدان . . . حين توضع في الميزان . فأين هداياه من
 نفائس ملوك السند الخفيفات الحمل الغاليات الأثمان ١٢٢

فتح جديد

كان محمد بن القاسم في دار الإمارة الفخمة بالملتان حين جاءه البريد من العراق يحمل نبأ وفاة أمير العراق: الحجاج ابن يوسف الثقفي، ابن عم بطلنا، ومعهودة إقدام نفسه على المكارة في الحروب.

وجلس البطل يستمع من رسل العراق ونعائه أنباء الميتة التي مات عليها أمير العراق ومُسكنُ فتنته، وواضع الأمور فيه على قرار مكين. قال أحدهم - والدمعة تعنقه - وكان صنيعة من صنائع الحجاج :

- لما حضرت الوفاة ابن عمك يا أمير السند وأيقن أنه صائر لا محالة إلى الطريق التي لا يرجع منها سائر، قال : أسندوني ؛ وأذن للناس فدخلوا عليه، فذكروا الموت وكربه، واللحد ووحشته، والدنيا وزوالها، والآخرة وأهوالها، وأنشأ يقول :

إن ذنبي وزنُ السموات والأر
ض وظني بخالقي أن يُحايي

فلئن آمن بالرضا فهو ظني . ولئن مر بالكتاب عذابي
لم يكن ذلك منه ظلماً وهل يظلم ربي^١ يرجي لحسن المآب ؟
فحبس البطل الشاب عبرة كادت تترقق في عينيه وقال :

— رحمك الله يا ابن العم ! ويا أمير العراق ! إن رحمة
ربك وسعت كل شيء . إن البلاد التي فتحت بتدبير الحجاج
ورأيه وإمداداته وإشاراته من بخارى إلى سمرقند ، ومن فرغانة
إلى السند ، لتشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوله ،
وأنت يا ابن العم رفعت فيها للإسلام مناراً ، وبنيت فيها لدين الله
مساجد ، وأن مثلي ومثل قتيبة والمهلب هم الأداة التي نفذت
تدبيرك ، واتبعت خططك ، وتابعت سديد رأيك ، حتى لقد
قبل القائد المجاهد والفتاح العظيم قتيبة بن مسلم سديد رأيك
حين استخلف على جند المسلمين أخاه صالح بن مسلم فكسبت
إليه تلومه وتبصره قائلاً : (إذا غزوت فكن في مقدم الناس
وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقهم) !

واسترجع المسلمون وجيوش الفتح في السند حين بلغهم نبأ
وفاة الحجاج ، وأجمعوا أمرهم أن يمحضوا في الغزو مع قائدهم
بطل السند إلى غايته ، حتى تذهعن البلاد كلها لطاعة الدولة ..

ودخل في نفس بطل السند شيء من الخوف والقلق على مركزه في إمارة السند بعد وفاة ابن عمه الحجاج ، فقد كان البطل كما أسلفنا ربيبه وصُنْعَ يَدِيهِ . ولكن بطل السند كان يُبْعِد أسباب القلق عن نفسه بأن مثل الخليفة الوليد بن عبد الملك في عقله ووزنه لأقدار الرجال لا ينتقص أجر عامل ، ولا يتخلى عن رجل فتح باسمه وبجيشه وبماله للأمويين فترحاً لم تكن تخطر على بال .

ولقد ابتلى الوليدُ نفسه جهادَ بطل السند وعَرَفَ صدقه في الحرب وولاءه في الخدمة معرفة اليقين ، فقيم يخافُ ابنُ القاسم على مركزه ، وقيم يتسرب إلى نفسه هم ووسواس ؟ أينظر البطل الشاب قاعداً عن الغزو ، ممسكاً عن الجهاد ، حتى يأتيه عهد الخليفة الأموي وموثقه بأنه باق في إمارة السند بعد موت الحجاج ستده ودعامته ؟ لا ! إنه لأكبرُ من أن يجزع لمثل هذا ، وما هو إلا جندي من جنود المسلمين ، عاهد الله على الطاعة ، ووثقه على الجهاد ، فلا يضيره أن يكون قائداً أو مقوداً ، وسيداً أو مسوداً .

ألم تسبق لخالد بن الوليد سابقة في الطاعة حين ولى الخلافة

عمر بن الخطاب : فكتب كتاباً بعزل خالد من إمارة جيش الشام وتولية ابن الجراح مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسرّه إلى ابن الجراح . ولم يُدعه بين أفراد الجيش . لئلاّ تهين قوتهم . وتتفرق صفوفهم . ومضى في المعركة إلى نهايتها بالنصر للمسلمين . فسلم كتاب عمر بن الخطاب ، وسلم عليه تسليم الإمارة ؟ وأخذ موضعه من الجيش جنديّاً تحت قيادة القائد الجديد ؟

فلا يضير بطل السند بعد هذا أن يبقى في منصبه بالسند أو يُعزل ، إنه سيمضى في الغزو إلى النهاية التي كتبها الله للمجاهدين الصابرين وخرج البطل في جيشه راجعاً إلى مدينة الرور، والبغور ، وهما مما فتح الله به عليه قبلاً ، فأعطى الناس الأعطيات ، وسمع إلى الشكاوى ، ونظر في أمور أهلها بما يُوجب العدل وتقضى به المصلحة . ثم توجه من هنا إلى مدينة البيلمان ، فلم يقاتله أهلها ثقة منهم بأن جند المسلمين هم الغالبون ، فأعطاهم ابن القاسم الطاعة والأمان . ومضى إلى نجر سرشت ، وهي مغزى أهل البصرة ، وقد اشتهر أهلها بقطع البحر وأصّ المسافرين ، كما كان أهل مدينة الديبل ، فطلبوا الأمان فأمّنهم على أن لا يقطعوا بحراً ، ولا يهاجموا ركباً . .

سبحان الله ! هؤلاء القراصنة المنتشرون على ثغور بحر الهند ، كانوا يُخيفون الطريق ، ويقطعون البحار على السفن الغادية والرائحة ، فلا يسلم منهم راكب ، ولا ينجو منهم عابر ، حتى لقد اعترف ملك زاهر — كما قرأنا قبلاً — أنه لا سلطان له عليهم ، ولا قبل له بهم . . . ثم يجيء اليوم شاب عربي مسلم في السابعة عشرة أو فوقها بقليل ، فيحل الأمن محل الخوف ، ويؤدب العصاة وقطاع البحار ، فيسود الهدوء ثغور بحر الهند وسواحلها ، ولا تسمع بعد اليوم نبأة واحدة عن غارة على مركب ، أو سطو على سفين . . . ؟

بقيت أمام بطل السند مدينة الكيرج ، وملكها دوهـر ، وكان يعدل الملك زاهر في الشهرة والسلطان ، فأقى محمد بن القاسم المدينة غازياً ، حتى لا تبقى هذه المملكة شوكة في جنوب المسلمين . فخرج الملك دوهـر في ألوف من رجاله ، وهم على متون الأفيال الضخام ، كأنها قطع من السحاب الثقيل الدواكن ، والنقع يثار في الجو كثيفاً ، حتى لو ابتغت الخيل والفيلة عساقاً عليه لأمكن . . . والسيوف تلمع في عجاجات الغبار الأسود كأنها كواكب تنهار في ظلمات ليل أليل . . . وقاتل

المسلمون قتالا شديداً كعهدهم في كل معركة خاضوا غمراتها ،
فانهزم العدو وهرب دوهـر ملتصقاً النجاة بنفسه بعد أن فنى
جيشه . ولكن سيوف المسلمين لاحقته في مهـربه ، لأنها سيوف
كالدهـر لا ملجأ منه ولا هـرب . فقتل دوهـرُ ملكُ الكيرج كما
قتل ذاهـر من قبله . وهنا هزت الحماسة قلب الشاعر الراجز ،
فقال يُزهِى بهذا النصر المبين ، والفتح العظيم :

نحن قتلنا ذاهراً ودوهراً والخيل تُردى منسراً فنسرا

* * *

ومضى عام ٩٥ من الهجرة بما حمله من خير وشر . . .
مضى بوفاة الحجاج بعد مرض يقال إنه ألح عليه فتساقطت
نفسه أنفـساً . . . ومضى بغزوة غزاها قتيبة بن مسلم حتى أمعن
في أرض بكرمشاهان أو بلاد الشاش ، ومضى بفتوح بطل
السند للبيلمان وسرشت والكيرج ومقتل الملك دوهـر كما سبق
الحديث . وطلع عام ٩٦ من الهجرة بما لا يدرى الناس ولا
يعلمون . . . لأن الليالى من الزمان حبالى ، يلدن، والله وحده
أعلم بما يلدن . . . فاللهُ وحده يعلمُ ما فى الأرحام ، كما يعلم

ما في مستكن الغيب ، وكما يعلم وحده ما تُخفي الصدور . . .
 جاء عام ٩٦ من الهجرة ، ومضى بطل السند يقطع الشهور
 الأولى منه في غزوات هنا ، وغارات هناك ، تمكيناً لقواعد
 العرب في البلاد الجديدة المفتوحة ، والتي لا تزال على حداثة
 عهد بالإسلام . وفيما هو يمكن لمراكزه ومراكز جنده في السند
 إذا بنى الخليفة الوليد بن عبد الملك يأتيه في ليلة من ليالي
 النصف من جمادى الآخرة . فيجزع بطل السند لوفاته ، لأنه
 يمكن له في إمارة السند عاماً آخر بعد وفاة ابن عمه الحجاج
 أمير العراق . ولأن الوليد بن عبد الملك كان باراً ببني ثقيف ،
 عطوفاً عليهم ، مصطنعاً لهم ، وخاصة أهل بيت الحجاج
 من بني ثقيف ، وسنعرف عما قليل أسباب هذا البر من الوليد
 ببيت الحجاج عامة وبالحجاج خاصة .

والحق أن وفاة الوليد بن عبد الملك كانت سبباً لأن يجزع
 الناس لها ، ويحزنوا من أجلها . فلقد كانت سوق الجهاد
 قائمة في عصره ، فوق ما كانت قائمة في عصر سلفه وأبيه
 عبد الملك . ولم يكن للناس شغل في عهده غير الجهاد والفتح ،
 والبناء والتعمير ، حتى ليلقى الرجل من المسلمين أخاه في عهده

فيُسألُه عن الفتوح والغزوات ، والأبنية والعمارات ، على حين كان الناس في عهد أخيه وخلفه سليمان بن عبد الملك يتلاقون فيسأل بعضهم بعضاً عن ألوان الطعام ! لأن سليمان كان يحب ألوان المطاعم . . . والناس على دين ملوكهم . . . !

والحق أن جيوش المسلمين في عهد الوليد بن عبد الملك فعلت للإسلام ما لا يقل عما فعلته جيوش الفاتحين في عهد عمر بن الخطاب . ففي عهده علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها . حتى مُلئت قلوب الأمم والملوك رعباً وفزعاً . لا ينامون على قرار ، ولا يصحون إلا على هلع . فلذا ناموا أفزعتهم الأحلام بجيوش المسلمين ، وإذا نهبوا راعتهم جيوش الإسلام . هي تسل سيفها ، وتكتسح إلى النصر طريقها .

وكأنما كان النصر موكلاً بالمسلمين في كل غارة اقتمحوها ، فما دخلوا بلداً إلا فتحوه ، ولا توجهوا إلى قطر إلا أخذوه . وكان في عسكرهم الصالحون والأولياء والعلماء والتابعون ، والمؤمنون بوعد الله وهو حق . ففتيبة بن مسلم يفتح بلاد الترك ، ويصل إلى تخوم الصين ، حتى يخافه ملكها فيرسل إليه الهدايا

والتحف والمال الكثير ، يسترضيه ويستعطفه مع قوته وكثرة جنوده . ومسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد بن عبد الملك 'يمعن في بلاد الروم ، ويجهد بعسكر الشام حتى يبلغ القسطنطينية ، ويبني فيها مسجداً يعمره من آمن بالله واليوم الآخر ، فتمتلئ قلوب الفرنج من المسلمين رعباً . . . وموسى ابن نصير يجهد في المغرب ، وينشر الإسلام في كل مرحلة من مراحل الغزو ، ويغزو رجاله جزيرة ميورقة من جزائر البحر المتوسط « البحر الأبيض المتوسط » ، ويبلغ رجاله طنجة ، ومنها تبدأ قصة الفتح العربي للأندلس على يد طارق بن زياد . . . ومحمد بن القاسم نفسه يصل إلى أعماق السند وأطرافها وثغورها ، فيزيل منها دول الأصنام والأوثان ، ويجعل فيها الكلمة لله الواحد الديان . . . فعند بطل السند محمد بن القاسم للجزع على موت الخليفة الوليد بن عبد الملك أسباب وأسباب . . .

في أعقاب موت الوليد

مات الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ من الهجرة كما سلف القول ، فكانت وفاته أشد على نفس بطل السند من وفاة الحجاج ابن عمه . لقد كان الحجاج أميراً على العراق ، وهو لا يعدو أن يكون عاملاً من عمال أمير المؤمنين ، فما دام الخليفة راضياً عن ابن القاسم فإنه مُوقن بأن عمله باق لا يتغير ، ولئن مات الحجاج دعامة ابن القاسم وسنده ، إن الخليفة لفيه نعم السند لفتى مجاهد هو وأهله من بني ثقيف صنائع الأمويين . ولكن السند قد مات اليوم ، وجاء خليفة جديد — هو سليمان ابن عبد الملك — يكره الحجاج وأهله ومن يمت إليه بماتة ، قريبة أو بعيدة من الرحم ، ويتمنى بجدع الأنف لو نُخل بينه وبين بني ثقيف جميعاً .

فما سر هذه الكراهة والعداوة من الخليفة سليمان بن عبد الملك ، للحجاج الذي شد الرحال إلى رحاب ربه ، ولكل قائم وقاعد من أهل الحجاج ؟

لا بد للجواب عن هذا السؤال من الوقوف بعض الوقوف على حديث ولاية العهد من أيام مروان الخليفة الأموي إلى من جاء بعده على الولاء ، وهم عبد الملك ، والوليد ، وسليمان . فلأن في هذه الوقفة القصيرة مفتاح القضية التي نحن بصدددها ، والتي تُنكب بها بطل السند نكبة لم ير الرأءون مثلها في الجحود والتكران ونسيان أعمال الأبطال .

كان مروان بن الحكم هو الخليفة الرابع من خلفاء الأمويين ، وقد جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك أولاً ، ثم لابنه الآخر عبد العزيز من بعده . وفي سنة ٨٥ وقبيل وفاة عبد الملك بن مروان بعام واحد ، أراد هذا الخليفة أن يعزل أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ، ويجعل مكانه ابنه الوليد بن عبد الملك ، يريد بذلك نقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وكان في عبد الملك ميل إلى المشاورة في الأمور قبل المضي فيها ، حتى تنكشف له وجوه الرأي عما يمكن أن يعمض فيه . فاستشار في ذلك اثنين من خاصته وأهل الحظوة لديه والقربى عنده ، وهما قبيصة بن ذؤيب ، وروح بن زباع ، فهما قبيصة عن عمل لا تُحمد مغبته ، ولا تؤمن تهمة الغدرفيه ،

وأقره رُوْحُ بن زنباع وشجعه على خلع أخيه قائلا : لو خلعتهم ما انتطح فيه عتزان . . . وفيما هو من التردد بين الإقدام والإحجام إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز . . . فقال لروْح : كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه .

وبهذا حل الموتُ مشكلةً أفلقت بال عبد الملك فاستراح ، وتخلص — على يد ملك الموت — من أخيه ، وعهد بالخلافة إلى ولديه الوليد أولا ، وسليمان من بعده . وكتب بالبيعة لهما عهداً بعث به إلى الأمصار ، فبايع الناسُ كلهم إلا سعيد بن المسيب فامتنع ، وإن كان ذلك لا يُقدم ولا يؤخر في القضية التي نحن بسبيلها . . . وجاء الوليد بعد أن جاءته الخلافة عقب وفاة أبيه عبد الملك ، فأراد أن يُعيد الذي عمله أبوه من قبله . وذلك بأن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ، ويجعلها لولده هو عبد العزيز بن الوليد . . . وبذلك تستقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وجهد الوليد لذلك جهده ، وأحكم خططه ، ودعا الناسَ إلى ذلك ، فامتنع عليه أكثرهم ، ولم يجبه إلى عزل أخيه سليمان إلا الحمجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق ، والقائد الغازي قتيبة بن مسلم ، وبعض خاصته .

ولقد دخل جماعة من الشعراء في مسألة ولاية العهد لعبد العزيز ابن الوليد ، فدعّوا له ، ورأوه أحق من عمه سليمان ، وحرضوا الخليفة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لعبد العزيز بن الوليد . ومن هؤلاء جرير الشاعر الذي أكثر المدائح في عبد العزيز ، ودعا الناس إلى مبايعته فقال فيه :

إلى عبد العزيز سمت عيون الرّ	حية إن . تُخَيَّرَتِ الرّعاءُ
إليه دعت دواعيه إذا ما	عماد الملك خَرَّتْ والسماءُ
وقال أولو الحكومة من قریش	علينا البيع إذ بلغ الغيلاءُ
رأوا عبد العزيز ولي عهد	وما ظلموا بذلك ولا أساءوا
فزحلفها ^(١) بأجمعها إليه	أمير المؤمنين إذا تشاءُ
فإن الناس قد مدوا إليه	أكفهم وقد برح الخفاء
ولو قد بايعوك ولي عهد	لقام القسط واعتدل البناء

على أن جريراً كان موالياً لعبد العزيز بن الوليد قبل ظهور مسألة ولاية العهد ، وقد ظفر منه بأسنى الجوائز ، وأكرم الصلات . وقد كان عبد العزيز لا يرد له مسألة ، ولا يُخيّب قصداً ، حتى بدت عليه آثار عطاياه فقال فيه :

(١) زحلفها : ادفعها .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً من البيضاء^(١) أو زمن القتاد
 مبنين مع الجراد تعرقتنا فما تبقى السنون مع الجراد ؟
 ولولا فضل نائله علينا لما أحيا بني ولا تلادى
 أنشكر من له أثر علينا كآثار الولي على العهد

فلما مات عبد العزيز رثاه جرير بقصيدة يقول منها :

نعوا عبد العزيز فقلت : هذا جليل الرزم والحدث الكبير
 فبتنا لا نقر بطعم نسوم ولا ليل نكابده قصير . . .
 وأظلمت البلاد عليه حزناً وقلت : أفارق القمر المنير؟؟

• • •

وأشار بعض الخاصة من ذوى التدبير على الخليفة الوليد
 أن لا يصل إلى عزل أخيه سليمان عن طريق القوة والسلطان
 من ناحيته ، ولكن عن طريق استقدام سليمان والرغبة إليه في
 خلع نفسه من ولاية العهد ، والبيعة لابن أخيه عبد العزيز .

وقد كان في ذلك الحل حل^٢ للمشكلة على وجه ليس فيه
 عنف ، ولكن فيه من إحياء القوة ونعومة المدخل مالا يذهب

(١) السنة البيضاء : هي السنة المجيدة .

ببشاعة العمل كله . فإن سمة الغدر في العزل لا تزال تطبع
العجل ، سواءً أكان العزل إنزالاً من صاحب السلطان ، أم
نزولاً من صاحب الحق . . .

وكتب الخليفة الوليدُ بن عبد الملك إلى أخيه سليمان
يستقدمه ليأخذه منه إقرار النزول عن ولاية العهد ، فاعتلَّ سليمان
أو أظهر العلة . . . فأراد الوليد أن يسير إليه بنفسه ، وأمر
الناس بالتأهب ليسيروا معه ، للتعجيل بأخذ التنازل منه لابنه ،
ولكن الموت — في هذه المرة أيضاً — حال بين الوليد وبين
أمنيته . فلم تتم محاولته لعقد ولاية العهد لابنه عبد العزيز ،
ومات الوليد . . .

وانحلت مشكلة ولاية العهد هذه المرة أيضاً على يد ملك
الموت الذي يحل ما استعصى من المشكلات ، لو كان الناس
يتعظون . أو يفتحون عيونهم وآذانهم على العبر العظيمة ، والحكم
البالغة التي تمر بهم . . . ولكن الله يقول ، وهو أصدق القائلين :
« حكمة بالغة فما تغني النذُر » .

وذهب الوليد إلى جوار ربه بما كسب لنفسه من لثم وصالح ،
وانتهى ما بينه وبين الناس في الدنيا من صراع وخلاف ، ليبدأ

ما بين أخيه سليمان الخليفة الحديد ، وبين الناس من أحقاد النفوس .

لقد كان سليمان حاقداً على الذين وافقوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد ، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي .
وباب سليمان - قبل أن يلي الخلافة - لا يطبق اسم الحجاج . ولا يطبق اسم واحد من أهله وخواصه ، بل لا يطبق اسم ثقيف كلها ، لأنها أخرجت هذا الرجل الذي يُقر خليفته على الغدر بعهد أخيه وكذلك كره سليمان بن عبد الملك القائد الفاتح قتيبة بن مسلم ، لأنه ذهب مع الحجاج فيما ذهب إليه من عزل سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد ، حتى لقد خافه قتيبة حين صارت الخلافة إليه ، وامتنع عن المبايعة له . وعزم هل خلعه من الخلافة وترك طاعته ، ودعا الجند والجيوش إلى ذلك ، فسلط سليمان عليه - في وسط الجموع - من قتله وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوانه وأبناء إخوانه .

وكذلك كان مصرع القائد الفاتح المجاهد الذي أبلى في الله أحسن بلاء ، وهدى الله على يديه إلى الإسلام خلقاً لا يحصيهم إلا الله . ولو لم يجعل الموت إلى الحجاج بن يوسف

قبل تولية سليمان الخلافة لما كان مصيره إلا القتل ، كما قتل قتيبة ابن مسلم ، ولم يُرْعَ في الله بلاؤه ، ولا في سبيل الإسلام جهاده . ومن هنا كان جَزَع بطل السند محمد بن القاسم على موت الخليفة الوليد ، ومن هنا كان خوفه من سليمان بن عبد الملك حين صارت الخلافة إليه ، ودُعى له على منابر الإسلام

ولم يكن بطلُ السند مستنداً في مخاوفه إلى غير أساس ، فهو يعلم الدور الذي قام به الحجاج لإقصاء سليمان عن الخلافة ، لولا أن الموت جاء بغير ما يهوى الوليد وخاصته ، وهو يعلم أن سليمان لم ينس هذه الفعلة للحجاج حتى لقد كره أهل الحجاج جميعاً من أجلها ، وكرهَ بنى عقيل قوم الحجاج ، بل كره ثقيفاً كلها . . . وهو يعلم — فيما جاءه من الأنبياء وهو بالسند — أن ابن عمه الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد بن عبد الملك قبله ، فيقع الحجاج في يد سليمان بن عبد الملك . لولا أن الله عَجَّلَ بوفاته قبل وفاة الوليد ، فأت مصوناً لم يالحقه سليمان بأذى ولا عذاب ، ولم يأمر بقتله كما قتل قتيبة ابن مسلم

نعم ! لقد كان بطل السند يعلم ذلك كله من الخليفة

الجلديد سليمان بن عبد الملك . ولكن ماذا يصنع ليرضى هذا القلب المنطوى على حقد وكره ؟ إنه لم يسئ إلى سليمان ابن عبد الملك ، ولم يُشر على الوليد بعزله ^{عنه} ولاية العهد وإقصائه عن طريق الخلافة ، ولم يُسهم فيما كان العراق آخذاً فيه من الفتن وإنما كان بعيداً عن ذلك كله ، فكيف يُجنّى غيره ويُحذّب هو ؟ والله يقول : « ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى » ؟

إنه مُرابط في السند التي فتحها بحد سيفه ، منتظراً أمر الخليفة الجديد ، فإنه قائد عسكري يُعرف بالطاعة ، ولا يخرج إلى عصيان ، لأنه ليس له في السلطان رغبة ، وما به إلى الإمارة اشتها

* * *

وجاءت أوامر الخليفة سليمان بما كان متوقّعا من مثله ، فعزل قتيبة بن مسلم عن إمارة العراق وخراسان ، وجعل مكانه يزيد بن المهلب ، وبذلك رده إلى إمارة خراسان بعد البعد عنها عشر سنين . . . ثم أمر يزيد بن المهلب بمعاينة آل الحجاج

ابن يوسف الثقفي ، وكان الحجاج هو الذي عَزَلَ يَزِيدَ عن
 خراسان . . . ثم جاء أمرٌ جديدٌ بعزل بطل السند محمد بن
 القاسم عن إمارة السند ، وتولية يزيد بن أبي كبشة مكانه .
 فكان ذلك العزل أولَ ما يلقاه البطل المجاهد من أجرة المجاهدين ...

البطل المعزول

نحن الآن في العام الخامس والتسعين من الهجرة حينما جاء أمر عزل ابن القاسم عن إمارة السند بعد أن قضينا معه في فتوحاته بضع سنين ، تبدأ من السنة التاسعة والثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك . ولقد جاء يزيد بن أبي كبشة إلى السند ، لا فاتحاً ولا غازياً ، ولكنه جاء بكتاب من سليمان بتعيينه والياً على السند وعزل محمد بن القاسم . . . ولقد كان بطل السند رجلاً على الرغم من حداثة سنه ، حتى في الساعة التي يفقد فيها الرجال أسباب التصرف ، ويُضيعون أزمة التدبير... .

لقد استقبل ابن القاسم الوالى الجديد ، والأمير الذى عُين بدلاً منه استقبال الرجل الهادئ ، والبطل الذى لا يبالي بحدث مهما اشتد ، ولا بخطب مهما جد . . . وجاء الأمير الجديد في جلال الإمارة ، وعز السلطان ، وكان الدالة عند الخليفة سليمان . جاء في أبهة الإمارة إلى رجل زالت الإمارة عنه ، ولكن لم يزل فضله . . . جاء في موكب فخم إلى فتى تعطل من

المواكب ، وتجرد من الحاشية ، وصفرت يدها من كل كلمة
أمره أو ناهية . . . جاء وليس بينه وبين بطل السند من أسباب
الحقد ما يدعوه إلى اتخاذ موقف التعجهم له والمسخط عليه .
إلا أنه جاء متأثراً بحقد الخليفة وكرهيته ، فأراد أن يكون خليفة
أكثر من الخليفة ! أو كما يقولون اليوم ملكياً أكثر من الملك ..

وكل ذنب بطل السند حتى يُعزل ويلقى هذا الجزاء
الجاحد ، أنه ابن عم الحجاج الذى كان الخليفة سليمان يحمل
له فى نفسه شيئاً ، لأنه أقر الوليد على عزله من ولاية العهد
وتنحيته من طريق الخلافة . ولقد مات الحجاج ، وكان يُظن
أن الموت سيزيل هنا أسباب العداوة ، ولكن سليمان كان
غاضباً على بنى عقيل قوم الحجاج كلهم ، لم يستثن منهم
أحدًا . . .

وتحت تأثير هذا الشعور الذى يجاهر به الخليفة سليمان
لقوم الحجاج جاء والى الجديده إلى السند . فلتر ماذا كان
موقفه من البطل المعزول .

أخذ يزيد بن أبى كبشة محمد بن القاسم فى عنف لا يليق
بمثله ، ولا تستوجه آثاره فى البطولة العربية ، ومواقفه فى

الفتوح . . . أخذه مقيداً في الأغلال ، مشدوداً في الوثاق ،
كما يؤخذ المجرمون بالنواصي والأقدام . . . ووكل به وهو في
محابس القيد ، والحديد يعضُ بيديه ورجليه ، رجالاً غلاظ
الأكباد ، وحراساً قساة القلوب ، حماهم معه من العراق وعلى
رأسهم معاوية بن المهلب لينجزوا له مهمة التكبيل والتغليل على
أتم الوجوه قسوة ، وأشدّها غلاظة وفظاعة .

ويروى المؤرخ ابن الأثير هنا أن محمد بن القاسم قال
متمثلاً :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
ولقد أحسن بطل السند في هذا المقام التمثيل بهذا البيت ،
ولكنه لم يجد سميعاً ولا مجيباً ، كما سمع جارُ أبي حنيفة النعمان
خبر سميع وخبر مجيب من أبي حنيفة ، حينما نزلت بهذا الجار
حنةً في ظلمات ليل . . .

فقد حدثوا أن أبا حنيفة النعمان كان له جار مولع بالشراب
يُجِبي الليل شارباً ، ويحييه أبو حنيفة قائماً لله . وكان هذا
الجار المدمن يغنى بالليل ، كلما ثمل ، هذا البيت :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فجاء العسس ليلة وأوقعوه في الحبس ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فعلم أن الشرطة حبسوه ، فكتب إلى الوالى ، وتكلم في شأن العفو عنه ، فأطلق سراحه وسراح مَنْ أخذ في تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة . وعلم الرجل بيد أبي حنيفة عنده ، فأقبل عليه يشكره ، فقال له أبو حنيفة : هل أضعنك يا فتى ؟ قال : لا والله ! ولكنك - برّرتَ وحفظت . . .

أما سليمان بن عبد الملك فما بر ولا حفظ ، بل أضاع فتى مجاهداً جريئاً ، وبطلاً فاتحاً مغواراً ، أخذ بذنب غيره ، وعوقب بجريرة سواه ، فكان شأنه شأن القائل :
غبرى جنى وأنا المعذب فيكم فكأننى سبابة المتندّم^(١)

ويروى ابن الأثير أن أهل السند بكوا على محمد بن القاسم ، وحق لهم أن يبكوا . فقد فتح بلادهم على نصارة من السن ، وطرامة من الشباب ، وكان في يده القيادة والسيادة ، والأمر والنهى ، والجاه والسلطة . فما اغتر بذلك كله ، ولا خدعه عن نفسه ولا عن ربه . لقد كان مثال المسلم الكامل : قوة في

(١) سبابة المتندّم : هو أصبح الرجل النادم بعضها وهو لم تجن ذنباً ..

القلب او شدة في البأس ، ومبالغة في العدل ، وسعة في البذل ،
وتحريراً لاحقاً . ومن هنا علقّت به النفوس ، وأحبته القلوب ،
وبكاه جيشه الغالب ، كما بكاه القوم المغلوبون .

ولم يكد يفرح يزيدُ بن أبي كبشة والى السند الحديد
بمنصبه ، ولم يكد يتنهأ بما صار إليه من إمارة دولة جديدة
واسعة الأطراف ، ولم يكد يرقد الليل مسروراً في أوله حتى
جاءه النذير بالأسفار فقد كان الموت راصداً له ،
وكانت حبال المنون تُحكّم له سداها ولحمها ، فمات بعد
قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً . وأغلب الظن أنه لم يمّت
بين الضرب والطعن ميتة المقاتلين . . .



ولم تخفّ لوعة أهل السند على محمد بن القاسم ، ولا
بكاؤهم عليه ، ولا قلقهم للمصير الذي ينتظره في العراق أو في
الشام أو في أية بقعة تكون فيها نهايته . وكأنهم قدّموا البكاء
عليه انتظاراً لما كانوا يتوقعونه من أمره . . . فقد صار إلى مصير
لا يتكافأ مع ما أسلف ، بل هو الجحود بعينه ، والغدر ببلاده .

واحتفظ أهل السند والهند فيما احتفظوا به من تذكارات البطل العربي المغامر محمد بن القاسم بصورة له ، صوروها في مدينة الكيرج التي فتحها سنة ٩٥ ، والتي كان يملكها الملك دَوهر ، فكانت أدل على مكانة بطل السند والهند في قلوب تلك البلاد .

الأسد الحبسى

كانَّ الشاعر على بن الجهم — وهو من شعراء القرن الثالث
الهجرى — كان يعبر أصدق تعبير عن محمد بن القاسم الثقفى
بطل السند ، وهو يقول فى قصيدته التى نظمها وهو فى السجن :
 قالت حبست فقلت ليس بضائر حبسى وأى مهند لا يغمد
 أو ما رأيت الليث يألف غيله كبراً وأوباش السباع تردد ؟
 والشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفرقد
 والحبس ما لم تغششه لندية شنعاء نعم المنزل المتورد
 بيت يحدد للكریم كرامة ويزار فيه ولا يزور ، ويحفد .

ولعلك أدركت — أيها القارئ الكريم أن بطل السند قد
اقتيد فى الأغلال ليحبس ، ويضيق عليه فى حريته كما يضيق
على المجرمين من أصحاب الدنايا الشنعاء .

ولقد بلغنا فى الحديث عن بطل السند مبلغ القبض عليه
وتوكيل معاوية بن المهلب به مع جماعة من أشداء الحراس

يسوقونه إلى العراق ، ويُسلمونه إلى رجل شديد العداوة للحجاج ، كثير الموجدة عليه ، لأمر سذكركه فيما يجيء من القول ، ذلك الرجل هو صالح بن عبد الرحمن .

ولم يكن صالح بن عبد الرحمن والياً على العراق ، ولا نائباً لواليه حتى يُسلمه حراس بطل السند إليه . ولم يكن صالح حرسياً ولا شرطياً ، ولم يك قواماً على سجون العراق يتولى أمرها ويدير شئونها . ولكنه كان عامل الخراج على العراق لسليمان ابن عبد الملك . فلماذا اختاره سليمان بن عبد الملك لمهمة القيام على محمد بن القاسم في سجنه ؟ وما العلاقة بين رجل يقوم على شئون الخراج ، ورجل عُزل عن قيادة جيوش السند ، وسبق مكبلاً في أثقال الحديد ، لا يدرى إلى أين يساق ، وماذا يراد به ؟

لقد شهد بطل السند مدينة واسط وهو في طفولته المتأخرة وشبابه المبكر . ورأى فيها يديوت أهلها من بني عقيل وهي تتدانى وتترأى ناراها^(١) في حى خاص بهم ، يمتاز من بقية أحياء المدينة الناشئة النامية بجلال المظهر ، ونضرة النعيم ، وبسطة

(١) أى يتقارب بعضها من بعض .

العيش ، وعرض الجاه . واليوم يُساق إلى واسط ، تلك الحاضرة الحميلة التي بناها ابن عمه الحجاج أمير العراق : فراها وقد تغيرت معالمها في ناظره ، وتكررت له ، وعلتها كتابةٌ موحشة بعد أن كان البشر يبدو من كل ثنية فيها ، وكل طريق من طرقاتها ، ومنعطف من منعطفاتها .

لقد كانت واسط بالأمس غير البعيد تنفسح له رحابها ، وتبسط له مضائقها ، واليوم يدخلها — أو يُدخله الحراس إليها — فتضيق في عينه ضيقاً لا يقوى عليه ، ويضيق صدره بها ضيقاً لم يعهده فيها من قبل . ولكن مدينة واسط في الحق لم تتغير ، وإنما تغيرت الحال بمحمد بن القاسم ، فرأها كنيبة في عينه وهي في الواقع غير ذلك ، ورأها موحشة في ناظره وهي ليست هنالك . . . ولو أنه عاد إليها في غير هذه الحال التي أعيد بها لرأها كما كانت ، وأنصر مما كانت : قلت العراق النابض ، ومركز الحركة فيه ، ومجتمع الإدارات وتنظيم والتوجيه ، ومدينة الحجاج التي بنى فيها قصرًا للإمارة ، وأنفق عليه ألوف الألوف من الدراهم .

وأقام بطل السند — أو أريد له أن يقيم — في واسط سجنًا

حبيساً ، بعد أن كان له في بلاد السند الأمر والنهي ، والحر والطلول ، والتصرف في الأمور كما يريد ، لا يعارضه معارض ، ولا يناقضه مناقض .

ولقد أنطق الحبسُ الأليم شاعرية البطل المغوار ، وفي بني عقيل فصاحة وشاعرية كانت تجلوها المواقف الجسام . ألم يكن الحجاج من خطباء العرب الذين كانت تسعى إليهم المنابر ، وتهتز أعوادها فتتهز منها قلوب السامعين ؟ ألم يكن يرقى المنابر ، فيعظ وعظ العلماء وينزل عنها فيفتك فتك الجبارين ، كما قال عنه الحسن البصري ؟ ألم تحضره الشاعرية وهو على فراش الموت ، في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فنظم أبياتاً في التوبة والاستغفار ، وهو في اللحظة التي تضع فيها بدائه الرجال ؟

نعم ! لقد نطق بطل السند وفي ثقيف وهو في سجنه بواسطة شعراً يقول فيه .

فلئن ثويتُ بواسطة وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرنٍ قد تركت قتيلاً

لقد أحسن بطل السند الظن بالخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك حين تجب لإساءة الظنون . ولكن الفتى الطيب القلب معذور ومعذور . فما أذنب ، ولا اقترف جرماً ، ولا اكتسب إثماً . وكل ذنبه أنه ابن عم الحجاج الذي كان عدو سليمان المبين .

ولو أن ابن القاسم رأى من وراء الغيث هذا الحبس الذي كان ينتظره حين جاءه نبأ وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية أخيه سليمان — لو أنه رأى ذلك المصير وقدّره . ما أسلم نفسه ليزيد بن أبي كبشة والى السند الحديد ، ولكان ركب إلى الفرار ألف سبيل وسبيل . ويقول هو في ذلك شعراً منه :

ولو كنتُ أجمعتُ الفرار لو طُئْتُ إناثُ أعِدَّتْ للوغى وذُكُورُ
وما دخلتُ خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عكٍّ علىَّ أميرُ
وما كنتُ للعبد المزونى تابِعاً فيالآك دهر بالكرام عشورُ !

وخيلُ السكاسك هي خيل الوالى الحديد وأمير السند يزيد بن أبي كبشة ، الذى ينتهى إلى قبيلة السكاسك من كندة ، وهم من العرب اليمنية .

نعم ! كان يستطيع بطل السند الفرار لو أراد ، ولكنه
 — كما رأيناه في كل واقعة — جندى لا يعرف الهرب ، ولا
 يلتمس الفرار .

لقد كان مقداماً في كل مراحل حياته القصيرة قصر أعمار
 الورود ، فلماذا يفر فرار الجبان وهو واثق أنه برىء ؟
 إن الأبطال يُقدمون على الموت في ساعة يتأخر فيها مرج
 الجبان ، فقيم الغضاضة إذن من السجن ولو كان طريقاً إلى
 الموت ؟

ثأر قديم

قد يكون للخليفة سليمان بن عبد الملك بعض العذر في
نقمته على قوم الحجاج جميعاً لموقفه من ولايته للعهد ، وإغرائه
الوليد بن عبد الملك بعزله من تلك الولاية ليفسح الطريق
لولده عبد العزيز . ولو أنه ليس من العدل أن يؤخذ الأبرياء
بذنب المسيء .

لقد روى ابن الأثير أن سليمان بن عبد الملك استعمل
يزيد بن المهلب على العراق ، وجعل صالح بن عبد الرحمن
على الخراج ، وأمره بقتل بني عقيل وبسط العذاب عليهم -
وهم أهل الحجاج - فكان يعذبهم ويلى عذابهم عبد الملك
ابن المهلب .

والحجاج دائماً هو مركز الثارات حين يغضب الأمويون
وأتباعهم وعمالمهم على بني عقيل .

لقد وثر الحجاجُ الخليفة سليمان بن عبد الملك حين كان
يدبر الأمور سرّاً وعلانية لخلعه من ولاية العهد . وهى ترة لم

يظفنها موت الحجاج ، فظلت تتلظى على أهله وقومه . فما هو شأن صالح بن عبد الرحمن بأهل الحجاج حتى يعذبهم هذا العذاب حين صار إليه أمر الخراج في أول عهد سليمان ؟ إن هناك ثأراً دفيناً بين الحجاج وبين صالح بن عبد الرحمن ، والعرب قوم لا ينسون الثرات . وترجع أصول هذا الثأر إلى أوائل عهد الحجاج بلمارة العراق .

لقد كانت حرب الخوارج على أشدها بالعراق ، حتى لقد هانت على هؤلاء القوم أرواحهم في سبيل فكرتهم التي نادوا بها ، وقاموا من أجلها . وحتى لم يشهد التاريخ صلابته واستمسكاً بالموت في سبيل الرأي كما شهد عند الخوارج . ولقد أقض الخوارج مضاجع الأمويين ، فلم تدق عيونهم طعم النوم من شدة ما رأوه منهم .

وحمل الحجاج الناس على حرب الخوارج حملاً ، ووكل بمناهضتهم المهلب بن أبي صفرة ، وهو رجل محارب قوى الشكيمة ، ماضى العزيمة ، سديد الرأي ، أحسن الاحتيال في الأمر ، يراوغ في الحرب ، ويحذر البغتات ، ويدب المراقبة ، ويستعين بالحيلة .

وكان لا يؤتى للحجاج بخارجي إلا قتله ، حتى لقد قتل منهم بيديه خلقاً كثيراً . . .

وكان لصالح بن عبد الرحمن أخ اسمه آدم ، جرفته موجة الخوارج ، فسار في تيارهم ، ورأى رأيهم بعد أن فتن بفصاحة دعائهم ، وأخذ بشدة بلائهم . فلما وقع آدم في يد الحجاج لقي منه المصير الذي كان يلقاه كل خارجي ، وهو القتل . وكان حزن صالح بن عبد الرحمن على أخيه آدم شديداً ، ووجد عليه عظمياً ، وموجدته على الحجاج مما لا تذهب الأيام بحدته . فهي كأمه في الصدور ، مستكنة في الضمير ، حتى يحين الأوان للانتقام .

ومات الحجاج قبيل وفاة الوليد بن عبد الملك وفي ظل حمايته ، فلم يدرك الموتورون منه ثأراً ، ولم ينالوا ثرة ، فتحول السخط على الحجاج إلى السخط على قومه وأهله ، وانتقل الحساب من قائمة أمير العراق الحجاج إلى قوائم بني عفيل ...

* * *

ولم يكتب صالح بن عبد الرحمن بالثار القديم بين الحجاج وبين أخيه القتيل آدم بن عبد الرحمن ليتخذ سبباً لتعذيب

محمد بن القاسم الثقفي بطل السند وابن عم الحجاج . إن بطل
السند الآن حبيس في سجن ضيق مظلم من سجون واسط مع
جماعة من بني عقيل — قوم الحجاج — يساءون العذاب كلما
أجنّهم ليل ، أو أشرق عليهم من خلال قضبان السجن وميض
من صباح . فلماذا لا يُقتل بطل السند على يد صالح بن
عبد الرحمن ، كما قتل الحجاج بالأمس أخاه آدم بن عبد الرحمن ؟
ولكن بطل السند لم يقترف ذنباً يستحق عليه القتل بله
السجن ، فما هو الذنب الذي يلصق به ، وما هي التهمة التي
تُفتري عليه ، حتى يكون للقتل مستوجباً ، والمحكم عليه بالموت
مستأهلاً ؟

هنا ستهض أحقادُ الصدور لتشتي غليلها على حساب
الأبرياء . . .

فرية على الأبرياء

كان آخر عهدنا بالأميرة "سيتا" ابنة الملك ذاهر أنها حُملت أسيرة إلى دمشق عاصمة الأمويين ، بعد أن استراب البطلُ محمد بن القاسم من أمرها ، ولاحظ عليها اتصالات خفية مع جماعة من أمراء السند المخلوعين المغلوين على أمرهم ، ونخشي أن تكون الأميرة الشرقية السمراء قد خامرت مع قومها على العرب لتثار منهم لأبيها المقتول ، وليلادها المغلوبة ، ولأسرتها المنكوبة .

ولقد كانت الأميرة سيتا تُظهر للأمير العربي الشاب محمد بن القاسم قبل ترحيلها إلى دمشق ما تحببت به إليه ، حتى شغفته حباً ، وكان يبدى لها من الاهتمام بها والعطف عليها والمودة لها ما شهدت به مناء السند وأرضها .

والحق أن ابنة الملك المقتول لم تتظاهر بحبها للأمير العربي بطل السند إلا لتتخذ من ذلك الحب الظاهر وسيلة إلى غرضها ، سبباً لبلوغ أهدافها . فكانت تسارهُ بالإشارة ، وتُخافيه بلحن

العبارة ، في لكثة سنديّة ، ولوثة غير عربيّة ، لعلها تتأقّف من بين شفّتيه الكتومين خبراً يفيدُ المخامرين من قومها ، وينفعُ المتأمرين خفية من بنى جنسها .

وحاولت سينا أن تُخفي شأنها قدر ما وسعها الإخفاء ، حتى لا ينفضح أمرها ، أو ينكشف سرها ، فتيوه خطتها بالخفية ، وتنقلب أمورها إلى أسوأ منقلب .

ولكن بصيرة القائد الشاب كانت أهدى من الشمس حين تجدُ فيها الأَبصار هداية إلى معالم الطريق ، فأدرك من نظراتها ما تخفي سريرتها ، ورأى في عينيها دليلاً على خبايا فؤادها ، ورأى من أمرها أنها كانت تخرج في الليالي المتشعبة بالسواد ، تطلُّ الثرى في رفق ، وتتسلل بين الشجر في حذر ، وتصلُ الخطى في نفس مكتوم ، ثم تعود بعد ذلك كأنما انزاح عن صدرها هم ثقيل . . .

وذات ليلة خرجت سينا كعادتها ، وكان ابن القاسم قد بث لها من الأرصاد من يتابعون خطوها ، ويقفون على جليلة أمرها . فسُمرت عيونهم المتفتحة على شبحها المجلل بسواد الليل ، وظلوا خلفها لا تنحرف عنها أبصارهم ، ولا يحيد عن مسيرها

مسيرهم ، إلى أن رأوها تلاقى ثلاثة من الرجال لقاء خفيفاً سريعاً ، امتدت فيه يدها بشيء وامتدت فيه يد أحدهم بثلقف ذلك الشيء على حذر ، ثم مضى الثلاثة بمعين في سير حثيث يدنو من الجحري ، وعادت الفتاة أدراجها ، وهي موقنة أن أحداً غير الليل والثلاثة الشخوص لم يشهداها . وأنها آمنة في كنف الظلام الحالك ، من أن تأخذها عيون المتطلعين ، وأبصار المتجسسين ... وعاد عيون ابن القاسم ينبشونه بما رأوا ، ويخبرونه بأمر الفتاة المريبة التي تتخذ من ملأه الليل الأسود سترًا لخطوطها السود واستدعاها ابن القاسم ، وأخذ معها في الحديث وأعطى ، وأبدأ وأعاد ، إلى أن استيقن أن الأميرة ممالئة ، وأن العطف الذي أبداه نحوها كان في غير موضع ، وأن الحب الذي كانت تتظاهر به كان سترًا لأخبط الأهداف ، وأن رغبة الثأر لأبيها تتحرق في قلبها ، فود لو أن أدب الحرب في الإسلام كان يُجيز قتل امرأة ! إذن لتخلص منها بأيسر طريق كما يتخلص من الجواسيس . ولكنه رأى أن يبعث بها أسيرة إلى عاصمة الخلافة في دمشق ، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً ...

ومضت بضعة أعوام على الأميرة الأسيرة "سيتا"، قضتها في دمشق وحيدة بعيدة عن أرضها ، ولكنها لم تكن غير واحدة من هؤلاء الموالى والحوارى الذين كان الولاة والعمال يُهدونهم إلى بلاط الخليفة . ولقد كانت سيتا أول أمرها مولاة في بلاط الوليد ، ثم أهداها إلى واحد من أسرته . واختلفت عليها في خلال بضع السنوات من الحوادث ما لا شأن لنا به ، مما لا يتصل بتاريخ ابن القاسم في قليل أو كثير .

وما يهمنا هنا أن نعرض من تاريخ حياتها في دمشق ما لا يهم به التاريخ . إلا أننا نذكر أنها كانت وصيفة في قصور الأمراء من بنى أمية ، لعلها كانت تحسن من أمور الخدمة في القصور ما تلقته في قصور أبيها الملك ذاهر ، أو لعل نشأتها في بيت ملك كانت تُعينها على إجادة التنشئة في بيوت الأمراء ، أو لعل من الكرامة والإكرام لابنة ملك مغلوب مقتول أن لا تعامل معاملة الرقيق .

ولقد بلغ آخر المطاف بها في خدمة القصور لرجال بنى أمية أن خدمت في دار لرجل من رجال سليمان بن عبد الملك الذين اتصلوا به قبل أن تصير إليه الخلافة ، فلما استقرت له

دعائهما بعد مسألة ولاية العهد أدناه إليه ، ورفع مكانه عنده ،
وأنا له الحظوة لديه . ولعل سينا الأميرة السندية لم تكن في دار
أحد من أمراء بني أمية أسعد حالاً مما كانت في دار الشيخ
صفوان

* * *

وقضى صالح بن عبد الرحمن في مدينة واسط شهوراً يضع
فيها أصول الخراج للدولة الأموية على أساس يرضى عنه سليمان
بعد أن بلغت النفقات في عهد الوليد بن عبد الملك حداً أكادت
تنوء به موارد الدولة ، ولعل صالحاً لم ينشغل بأمر الخراج أكثر
مما انشغل بأمر بني عقيل — وعلى رأسهم محمد بن القاسم بطل
السند — الذين وكل به سليمان بن عبد الملك أمر تعذيبهم والقيامة
عليهم في مجنهم في مدينة واسط . . . لقد كان يفكر في وسيلة
يخلص بها جملة من بني عقيل قوم الحجاج الذي قتل أخاه
آدم في فتن الخوارج ، وأضحى بذلك وائراً له ، وركز أطراف
حقده على بني عقيل في البطل الشاب محمد بن القاسم . فإذا
يصنع ليتخلص منه ومن بقية قومه بالقتل الذريع ؟
لقد كان لبطل السند في قلوب المسلمين محبة لا ينزعها

نازع ، فأحبه أهل السند حباً يدنو من تقديس آلهتهم
 الأقدمين ، وصنعوا له صورة في مدينة الكيرج ، كما يصنع
 الناس بالتمائيل حين يقيمونها للأبطال وعظماء الرجال تخليداً
 لذكورهم . وأحبه الجنود المقاتلون من رجاله حباً امتزج بالطاعة
 التامة كما امتزج بدمائهم . وبكاه هؤلاء وهؤلاء حين جاءه
 الأمر مع والى السند الجديد بالعزل ، وحين قيده هذا الوالى
 وساقه في حرس شديد إلى العراق لينظر في أمره .

وفوق هذا أحبه المسلمون في العراق والشام ، وأخذتهم من
 أنباء شجاعته وبسالته وبطولته ما جعلهم يتحدثون باسمه ، كما
 كان يتحدث الأقدمون بأبطال الأساطير

وما سجلت السنوات الست التي قضاها ابن القاسم في السند
 فاتحاً غازياً مجاهداً في سبيل الله ، ضارباً بسيف الله أعناق
 الكفر ، ومهطاً رءوس الشرك — ما سجلت عليه عيباً واحداً :
 أو نقيصة واحدة يؤخذ بها ، ويستحق العقاب من أجلها .

لقد كان أميناً على أموال المسلمين وأرواحهم ، حريصاً
 على أعراضهم ، كما كان حريصاً على أعراض أهل البلاد المفتوحة
 فما استحل فيها حرمة ، ولا هتك ستر ، ولا أباح معصية .

وكان في سلوكه نفسه ، وفي سيرته الشخصية ما كان أحسن المثل لقومه العرب ، حتى اطمأن أهل السند إلى المسلمين ، وألقوا إليهم السلام ، ورضوا بالإقامة في كنفهم ، لأنهم رأوا فيهم من العدل ما لم يجدوه ، ودخلوا في الإسلام راضين لم يُرغمهم سيف ، ولم يُكرههم عليه عسف . وتحسّن إسلامهم إلى يومنا هذا ، فكسب بهم دين البيئنة أرضاً واسعة ، وقلوباً عامرة ، وعدداً كاثراً إذا عُدد عليه الحصى يتخلف . . .

فإذا يصنع صالح بن عبد الرحمن إذن ليأخذ الوتر من الحجاج الذي مات وشيع موتاً ؟ ماذا يصنع ليثار لمقتل أخيه آدم بن عبد الرحمن من شاب برىء ، ذنبه أنه قريب للحجاج فقط ؟ وهل كانت القرابة غرماً يحتمل فيه الأقارب المغارم دون أن يكون لهم وزر ، أو يقع منهم إصر ؟ إن الله يقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » . فكيف يصح في مشارع العقل وموارد الطبع أن يلزم إنسان برىء طائر غيره ، ويتحمل تبعات سواه ؟

ألا يصح لبطل السند حينئذ أن يتمثل بقول الشاعر الجاهلي :
لم أكن من جناتها — علم الله — وإنى بحرّها اليوم صالى !

سمع صالح بن عبد الرحمن - وهو في قصر الخراج بمدينة
 واسط - أن في دمشق فتاة من السند تتسم بسمات الإمارة ،
 وتنسب إلى الملوك من السند . فأبوها ذاهر الذي قتله جيش
 محمد بن القاسم في فتح مهران . فلماذا لا تكون هذه الفتاة
 بداية الخيط الذي يصل به صالح إلى مأربه من قتل بطل السند
 محمد بن القاسم : ابن عم الحجاج ؟

خيوط المؤامرة

وقد صالح بن عبد الرحمن على عاصمة الأمويين ليعرض على أنظار الخليفة سليمان بن عبد الملك جرائد الخراج في العراق بعد أن ولاه الخليفة أمره . والحق أنه كان يُعد في حقيقته لهذه الرحلة التي جاز بها العراق إلى الشام شيئاً ، ويبيّت أمراً لبطل السند محمد بن القاسم .

وكان ركبُ صالح إلى الشام فيه من الخرس والجند ما يليق بمقام عامل الخراج ، وهو الرجل الذي يجمع للدولة ما لها ، ويلم لها أطراف ثروتها ، مما يعينها على التعمير والإنشاء والغزو ، والنفقة على الجيوش ، ومظاهر الترف التي أخذت بعد ذلك تزداد في العصر العباسي .

وصالح بن عبد الرحمن هذا رجل من طراز عجيب ، فهو أذن " يتسمع الأخبار ويتلقفها من أي فم ، ويأخذها عن أية شفة ، ويتقرب إلى الخلافة بهذه الصفة التي أدّنت محله منها .

وأخذت المطايا تخب وتضع في طريقها إلى حاضرة بني أمية ، وتقف في مراحل الطريق ، تتزود بالماء والطعام ، وترتاح من مشقة الطريق ، وطول الرحلة .

وكان صالح يتبسط إلى خراسه في الحديث ، لعلمهم يفضون إليه بما يود أن يعرف من صغير الشئون وكبيرها ، وتافهها وجليلها . وفي يوم من أيام الرحلة جاءت النوبة على حارس من حراسه يقص على الركب وصاحبه أغرب ما شاهده في حياته . فذكر الحارس أنه كان من جنود الغزوة التي بعث بها الحجاج إلى ثغر السند ، وأنه رأى في هذه البلاد التي تركب الأفيال وتحارب عليها ، غرائب لا ينقضي منها عجب .

وكأنما سقط صالح بن عبد الرحمن على ضالة كان ينشدها ، فلعل الرجل تخرج من بين شفثيه كلمة تعينه على لإنجاح المؤامرة التي أضناه التفكير في تحوُّك خيوطها . وأقبل صالح بجملته على الحارس يصغى إليه ، وكان كبل عضو من أعضاء جسمه أذن تتسمع . . .

وتوقع صالح أن يذكر محمد ابن القاسم بما يتعرق إلى شفاء غلته منه ، فما وجد إلا لسان صدق ، وشهادة خير .

قال له صالح : وكيف كانت سيرة ابن القاسم بينكم ،
وخطته فيكم ؟ فأجاب الرجل :

— كان والله المثل الأعلى في سيرته وخطته ، حتى لقد ودّ كل
واحد من جنده أن يكون مصوباً على قلبه . فهو يعطف على
الصغير منا ، ويوقر الكبير فينا ، يأخذ نفسه في السلوك بما
يأخذ به المسلم المتصون نفسه ، فلا جور ولا طمع ، ولا صلف
ولا غرور ، ولا فسق ولا فجور .

— ولكنه ابن عم الحجاج الذي فجر في العراق ، وأطال
الله الطول له إلى أن أخذه وأراح العباد منه . ثم جاء الخليفة
سليمان ، وهو أحق الناس بالخلافة علينا ، والولاية فينا ، حتى
قال الناس فيه هذا القول المأثور : سليمان مفتاح الخير ، ذهب
عنهم الحجاج ، وولى سليمان . أفلا كان فيه بعض ما كان في
ابن عمه من فجور ؟

— والله يا ابن عبد الرحمن ما عهدنا على الرجل من سوء ، ولا
عرفنا فيه مذمة نأخذها عليه ، ونعيبها منه . وليس يحتم أن يكون
الرجل كابن عمه . فقد يختلف الإخوان في الطبع والأصل واحد ،
والأب واحد ، والأم واحدة . وقد بلد الحرّان غير نجيب ... وقد

يخرج الخبث من الفضة الخالصة ، كما قد يخرجُ الخبيث من الطيب . وقد يكون للحجاج من العيوب ما يؤاخذ عليها المؤاخذ ، بعد أن سفك من دماء المسلمين ما سفك ، وأزهق من الأرواح ما أزهق . وهذه خطبته بالكوفة حين دخلها فخطب الناس بغته ، وهددهم وأوعدهم ، حتى خافوه مخافة شديدة ، وكأن الله ابتلى أهل العراق بهذا الرجل ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم . فقل في الحجاج ما شئت ! أما ابن عمه محمد بن القاسم فلم يكن والله في شيء من ذلك كله . . . لقد كنا نخشى أن تغره الإمارة ، وحدائث السن ، ومكان القيادة ، ووفرة المال ، وملازمة التوفيق ، فوالله ما اغتر ، ولا تكبر ، ولا زادته الانتصارات إلا تواضعاً ، كالشمس تعلو في كبد السماء ، ويدنو شعاعها وضوؤها .

— كأنك تحدثني عن ابن القاسم بينكم ، فهلا حدثتني عنه مع أهل السند التي فتحها ؟

— إن الحديث عن ابن القاسم يشرفه من حيث نظرت إليه ، كالبدن من حيث التفت إليه يهدي إلى العين نوراً ساطعاً ، وضياء لامعاً . . . لقد كان والله كريماً مع "سيتنا" كرمياً لا يليق بما صنعت ؟

— ومن سينا هذه التي أكرمها الغلام الثاني من غلمان بني
ثقيف ؟

— أتسألني عن سينا التي سار بذكرها الركبان ؟ إنها أميرة
من أميرات السند ، وقف أبوها في وجه المسلمين الفاتحين فقتلته
جيوش محمد بن القاسم . وقد رق البطل الشاب لما آلت إليه
أمرها بعد مقتل والدها ، فأكرمها ورعاها صوناً لبنيات الملوك أن
تبتذل حياتهن . ولكنها لم تكن أهلاً لرعاية البطل الفاتح وعنايته ،
وكان أيسر جزائها على نية الممالة مع جماعة من قومها أن يقطع
رأسها . . فقد كانت تتجسس على محمد بن القاسم وهي في
كنف رعايته ، وتتعقب أخباره وأخبار خططه ، وهو مطمئن
غير مضمهر سوء ظن ، إلى أن انكشف له من أمرها ما كانت
تستره وتبالغ في كتمانها . فأرسلها أسيرة إلى العراق ، حيث بعث
بها أمير العراق إلى بلاط دمشق . وهناك تنقلت بها المصائر من
قصر إلى قصر ، ومن دار إلى دار ، حتى انتهت آخر الأمر إلى
دار الشيخ صفوان ، صفي الخليفة سليمان بن عبد الملك من قبل
أن تصير إليه الخلافة .

كان صالح بن عبد الرحمن يصفى إلى هذا القسم من حديث الحارس الذى فى ركبته إصغاء بالغاً ، حتى كأنه كان يلتهم كل كلمة منه ، ثم هز رأسه هزة الذى وجد حلاً ، أو انتهى إلى قرار ، وقال :

— وهى الآن فى دار الشيخ صفوان . . .

في دار صفوان

بلغ ركبُ صالح بن عبد الرحمن عامل خراج بني أمية على العراق أرباض عاصمة الأمويين ، وقد بدت على مرمى النظر شواهد الأبنية والمصانع التي جدّ بنو أمية في تشييدها ، وخاصة الخليفة البناء المعمر الوليد بن عبد الملك ، الذي كان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات ، كما كانوا يسألون في عهد الخليفة التقي الورع عمر بن عبد العزيز أيّ وردٍ قرءوا ، وكم حفظوا من القرآن ، وكم قاموا من الشهر ؟ وبدت للركب الذي كان حديث عهد بدمشق في عصر الوليد قبة الرصاص بالجامع الأموي التي وصفها الرحالة ابن جبير بعد ذلك بزمان طويل فقال : إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة ، وهياكلها الهائلة البنيان . وعجب ابن جبير فوق ذلك من الحجارة التي في جدر المسجد ، والتي يزن كل واحد منها قناطر مقنطرة ، ولا تنقلها القيلة فضلاً عن غيرها (فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف

تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة .

ولو أن ركب صالح بن عبدالرحمن تأخر به الزمان أربعة قرون أو تزيد قليلا ، لما سمع في وصف الجامع الأموي بدمشق - الذي بناه الوليد بن عبد الملك - أجمل ولا أدق مما وصفه به الشاعر العربي الفارسي أسامة بن منقذ الكنتاني حيث قال :

وكان جامعها البديع بناؤه	ملك يميز من المساجد جحفلا
ذوقه رفعت فضاهت قنة	ومنابر بنيت فحالت معقلا
تبدو الأهلة في أعاليها كما	يبدو الهلال تعاليا وتهلا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً	يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقوام بين شكوله	فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بحص فانبرى	بالفص يعلو والنضار مجلا
فلذا تذر الشمس فيه تخاله	يلقا ^(١) تألق ، أوحريه سأمشعلا
فكأنما محرابه من سندس	أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا
وتخال طاقات الزجاج إذابدت	منه للمحظك عبقرية مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما	تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة	سالت فظنوها معينا سلسلا

(١) يلق : البياض الشديد .

وتفرق ركب صالح في دمشق ، ومضى كل على وجهه حتى يقضى "صالح" المهمة التي جاء من أجلها . وهم لا يعلمون أكثر من أنه جاء لشأن من شئون الخراج الذي ولى أمره ، ولا يدرون شيئاً مما يدور في باله حول محمد بن القاسم ، وما يُعده له في حقيقته . . .

ومضى صالح بن عبد الرحمن إلى دار الشيخ صفوان ، وهو صديق قديم له . وقد التقيا في حب الخليفة سليمان بن عبد الملك قبل أن تصبح الأمور إليه . فسلم كل منهما على صاحبه ، ورحب المضيف بضيفه ، وفرح لرؤية صديق قديم ، وأخذ كل واحد منهما يسأل صاحبه عن طائفة من المسائل ، مما يخوض الصحاب القدامى فيها حين يلتقون ويتدافى بعيدهم .

وأراد الضيف صالح بن عبد الرحمن أن يستطلع أمر الوصيفة السندية "سيتا" التي بلغه في آخر مراحل رحلته أنها نازلة بدار صفوان التي هو الآن في رحابها . . .

ولا يعدم المرء ذو الحاجة أن يجد سبلا كثيرة يستطلع بها طلع الشيء الذي يريده ، فصالح بن عبد الرحمن عامل على خراج البصرة ، والبصرة ثغرا تنقطع السفن بينه وبين ثغور السند

التي فتح الله بها على المسلمين . فلم لا يأخذ الحديث بعضه برقاب بعض ، حتى يصل إلى قصة فتح السند من أولها ، أو إلى قصة محمد بن القاسم فيها . وإلى قصة العذاب والسجن الذي وكل به صالح بن عبد الرحمن نفسه ؟

وكان من طبائع الأشياء ومساق الحديث أن تُذكر الأميرة سيتا في مجال الحديث عن بلادها . وأبيها الملك ذاهر المقتول ، وفتح المسلمين لهذه الأرض الشاسعة .

واستدعى الشيخ صفوان الوصيصة السندية سيتا ليراها الضيف الوافد من العراق صالح بن عبد الرحمن عامل الحراج على البصرة . فدخلت وقد تغيرت ثيابها ، وتغيرت لكتنها السندية التي كانت في لسانها منذ بضع سنوات ، فهي تجيد الكلام في لسان عربي مبين . ولو أن صالح بن عبد الرحمن قد رآها يوم مقتل والدها ورآها اليوم لما أدرك تغيراً في صحتها إلا بمقدار ما يُغيره مرُّ بضع سنوات من عمر الإنسان فهي لا تزال سمراء ، ولا تزال عيناها تفتحان وتغمضان على أعماق الأسرار . . . وما زال صالح يثير فيها بالأسئلة كوامن حزن قديم عميق . فتارة يذكرها - أو يدعوها إلى تذكرك - ماضيها في قصر والدها الملك ذاهر حيث

نشأت وعلى وجهها نضرة النعيم ، وحيث كان الجوارى فى قصر
 ذاهر يقبلن مواطى أقدامها ، وحيث كانت الدنيا كلها فى
 يديها ، فلها ما تمت ، وعلى الأقدار أن تجيب . . .
 وتارة يذكرها — أو يحملها على أن تذكر — أحداث الفتح ،
 حيث لقي أبوها مصرعه على يد رجل مسلم وهو يدافع عن حماه .
 وتارة يذكرها بالأسر الذى وقعت فيه ، والمصير الذى
 صارت إليه منذ أن بعث بها محمد بن القاسم أسيرة إلى بلاط
 الأمويين . وسألها صالح بن عبد الرحمن عما بقى لها فى بلاد السند
 بعد أن قتل أبوها وضاع ملكه ، وتهاوى التاج من فوق رأسه ؟
 فأجابت :

— لقد خطبني فى السند — قبل أحداث الفتح العربى بقليل —
 أمير من أشرف أمراء السند نسباً ، وأكرمهم محتداً ، وكنت
 أحلم بالسعادة فى قربه ، وأتعجل دورة الزمان لأصير ملك يديه .
 ودار الزمن دورة قصيرة من دوراته ، ولكنها كانت محملة بما لم يكن
 فى حسابنا ، فمات أبى الملك ذاهر قتيلاً فى معركة الفتح العربى
 وزال الملك الذى كنا نمرح فى أفيائه ، وراح الحبيب الذى
 كنت أرجو وصاله . . . ولا أدري أين راح ، ولا أبان دارت به

عجلة الأيام ! وهأنذا الآن هنا بعيدة عن الوطن المنكوب ، فلا أهل ولا مال ولا حبيب . فمن يردني إلى أرضي التي افتقدتها ، وإلى أهلي الذين ضربت بيني وبينهم الأيام بالأسداد والأسوار واللجج ؟

— إن صديق صفوان قد ثقله شكواك كما آلتني ، ولعلني أنا الذي هيجت لك الجرح الذي يُدَمِّي قلبك ، ولعلها أول مرة يستمع فيها صفوان إلى مثل هذا الحديث الموجه . . . وأنا ضمين لك عند هذا الشيخ ذي المروعة أن يعتقلك ويُعين على ردك سالمة إلى بلادك البعيدة ، حيث قد تصادفك فيها عجائب المقدور بالأهل الذين تتوقن إليهم ، وبالحاطب الذي لا تعلمين ما أصارته إليه الأمور . ولكن لي عندك شيئاً واحداً فيه خلاصك وعودتك إلى وطنك .

— أرجو أن يكون في طاقتي بلوغ ما تريد .
 — لن يكلفك ذلك شيئاً ، فها هي إلا كلمة من بين شفقتيك يتقرر فيها مصير محمد بن قاسم عدوك وعدو أبيك من قبل . . .
 — آه من ابن القاسم أيها السيد الكريم ! لقد وترني بالأسر ، وترني بالقتل ، وترني بالسند كلها بالفتح . . . ! ولقد نسيت

السندُ الآن نرات الفتوح والغزو بعد أن دخلوا في الإسلام ،
ودانوا بالطاعة ، ونزلوا على إرادة الفاتحين . . . أما ترة قتل أبي
وترة أسري فأرجو أن لا تطول بي الأيام حتى آخذ بهما .

— وهل تضمرين العداوة لابن القاسم إلى هذا الحد ؟

— وأية عداوة أشد مما لقيت من هذا الذي كان يظهر لي
الود ويُسّر لي البغضاء ؟ لطالما شهدت أودية أنهار السند آثار
حبه لي ! ولو سألتهم حصي نهر مهران لنطق من وقع أقدامنا عليه !
— تقولين إن محمد بن القاسم أحبك أيتها الأميرة السمراء !
— نعم أحبني حتى أسلمت له قلبي ، وسلمته زمام هواي ،
ولكنني ما كنت أدري أنه كلف بالنساء ، متقلب في الأهواء .
ولو كنت أعلم أنه لا يثبت على حب ما منحته من نفسي
ما منحت ... فلما أبنت له العبت الذي يعبثه بقلبي ، رماني
بدائه ، وتجنّى عليّ ذنب التآمر والخامرة ، ووجد السبيل إلى
الخلاص مني ، والقذف بي إلى مطارح هذا الإسار البعيد .

— وما ظنك أيتها السمراء لو أبلغت خليفتنا المحبوب سليمان
ابن عبد الملك على لسانك أن محمد بن القاسم لم يكن — حين قتل
أباك واحد — من جنده — أميناً عليك ، ولا عفيفاً معك ، ولا
صائناً فيك أمانة العذارى المصونات ؟

غضب الخليفة سليمان

دخل صالح بن عبدالرحمن على الخليفة سليمان بن عبدالملك يعرض عليه من أمور خراج العراق ما كان موكولا به ، فسلم تسليم الخلافة ، فلما أذن له سليمان بالجلوس تبع ذلك بسؤاله قائلا :

— كيف حال العراق يا صالح بعد أن استعملتُ عليه يزيد بن المهلب وهو الضارب بسيفنا ، المتقلب في نعمنا ، المقيم على طاعتنا ؟

— إن العراق يا أمير المؤمنين يدين لك بالطاعة ، ويقر لك بالبيعة ، ويؤكد لك العهد الذي كان أخوك الوليد يريد أن ينزعه منك ، ويكرر لك التهنئة بما صرت إليه من ولاية أمر المسلمين .
— وما حال الخراج يا صالح منذ ألقينا تبعاته عليك ؟

— تَعَلَّمُ يا مولاي أن الحجاج مع عنفه الشديد لم يستخرج من خراج العراق كبير أمر . . . وما كان — قبحه الله — يصلح للدنيا ولا للآخرة ، لقد ولى العراق في العام الخامس والسبعين من

المهجرة ، والعراق أوفر . ما يكون خراجاً ، فأخس " به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، مع أنه بلغ في عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب إلى عشرة آلاف ألف ومائة ألف ألف . وكان من الواجب أن يزيد خراج العراق مع زيادة الفتوح ، واتساع العمارة . ولكن الحجاج لم يكن يعرف كيف يحتال للمال فيجلبه ويعمر به خزائن الدولة ، فلا بد من بعض الوقت يمضي ، حتى أستصلح من أمر الخراج بالعراق ما فسد . . . والله يبلغنا الأمل بك ، ويطيل العمر لك . . .

— آه يا ابن عبد الرحمن لقد ذكرتني بالحجاج ومساوئه ! ذكرتني المظالم التي ارتكبتها ، والسجون التي ملأها بكل من أخذه بريية ، والأرواح التي أزهاقها . . . ثم جرتني التذكير إلى ما كان من موقفه مني في مسألة ولاية العهد ، وأنا أحق بها من ابن أخي الوليد . ولقد رد الله كيده في نحره فأفسد عليه وعلى قتيبة بن مسلم تديرهما ضدى . فأنا ما زلت كارهاً لهذا الرجل الذي استوجب بخصي عليه بما سلف لي منه . . . والشئ بالشئ يذكر ! ما حال قوم الحجاج من بنى عقيل ، وقد طلبتُ إلى يزيد بن المهلب أن يخلص أموالهم ويعذبهم ، فترك يزيد ذلك إليك ؟

— إن بنى عقيل يا مولاي يلقون في مدينة واسط جزء ما
 أسلف الحجاج من ظلم وعسف ، ولا أظنهم إلا خليقين بالعذاب
 الذى يُنصب عليهم اليوم فى سجن واسط ، فإن هواهم كهوى
 عميدهم الحجاج لم يكن معك يوماً ما ، ولا كانت قلوبهم معك
 قبل أن يعهد الله إليك أمر المسلمين ، ولا بعد أن صار إليك
 أمرهم . فليذوقوا فى غيابات السجن وبال أمرهم ، وجزاء ميلهم .
 — ولكن يؤلنى يا ابن عبد الرحمن أننى أغلقت فى بداية
 عهدى السجن التى ملأ بها الحجاج الأبرياء ، وأخليت سراح
 الأسرى الذين كان يأخذهم بأذى الشبهات ، ثم أجىء أنا فأفتح
 سجن مدينة واسط — التى بناها الحجاج لدولتنا فى العراق —
 لأملاء به أهل الحجاج وقومه من بنى عقيل .

— ليرتح ضميرك ، ولتطمئن نفسك يا أمير المؤمنين بما
 صنعت ! فإن قوم الحجاج قد استطالوا وتكبروا ، وظنوا أنهم
 فوق منال كل سلطان ، حتى لقد بلغ من جرأة أحدهم — وهو
 محمد بن القاسم — أن يستعلى فى السند حين نصر الله جيش
 المسلمين على يديه ، فعلا فى تلك البلاد علواً كبيراً ، وظن أنه
 أكبر من حدود الله التى أخذ بها عباده ، فاعتدى على "سيتا" بنت

الملك زاهر ملك السند اعتداء فاحشاً ، ونال من عفتها ما لا يصدر عن كواثر الوحوش ، وما لا يليق ببنات الملوك ، وأميرات القصور . ولو أن الجناية الفاحشة ، والفعلة البالغة الفاجرة وقعت من جندي من عامة الجيش لعظمت فيها البلية ، وجل فيها الخطب ... فكيف وقد وقعت من القائد الغر الذي أرسله الحجاج إلى السند ، ليكشف لأهلها عن مساويه ، ويبين لهم عن مخازيه . فكل عيب فيه فهو مردود إلينا نحن العرب ، وكل فضيحة منه فهي منسوبة في نهاية المطاف إلينا ، وعائدة علينا . . .

— ومن أنباك بهذه الشنعاء يا صالح ؟

— أنبأتني بها الضحية نفسها ، التي أوقعها سوء حظها في مخالب وحش من وحوش بني عقيل ! أخبرتنى بها الفتاة السندية "سيتا" بعينها ، وهي في دار الشيخ صفوان ، وما داره منا ببعيدة .

— يأبي الله يا صالح إلا أن يكشف من قوم الحجاج كل يوم عورة جديدة ! إن الحياة في السجن لا يستحقها مغرور بني عقيل ! إنه لحقيق أن تسلب منه الحياة بعد الذي سمعتُ منك عنه . وأنا واثق مما قلت ، فلا حاجة إلى تحقيق أو استشهاد بأحد . ولا أجد غيرك يا صالح أقدر على القيام

باستلال نفس هذا الثقى الغر من بين جنبه ! فنى أنجزت
مهمتك هنا وعدت إلى العراق ، وحللت فى مدينة واسط حيث
دار الخراج تنتظر عودتك ، فلا تبطئ فى تنفيذ ما يستحقه ابن
القاسم من الجزاء .

* * *

وانقضت مهمة صالح بن عبد الرحمن فى شأن الخراج ،
وهى التى من أجلها وفد على دمشق . وعاد إلى واسط وقد حمل
من الخليفة سليمان تفويضاً بقتل محمد بن القاسم الثقى ، وإذا
زاد بقتل بنى عقيل كلهم المحبوسين فى سجن واسط فإنها زيادة
يرجوها زيادة الخطوة عند الخليفة سليمان . . .

وما كادت المطايا يبلغن واسط — مدينة الحجاج — بما
يحملن من صالح بن عبد الرحمن ورجال حرسه ، ولم يكد
المسافر العائد يقر عيناً بالإياب ، حتى خيم على المدينة الصاخبة
وجوم عميق . . . وسرى النبأ من واسط إلى كل بقعة من بقاع
الأرض — وأسبقهن دمشق — بأن صالح بن عبد الرحمن عامل
خراج سليمان على العراق قتل فى السجن محمد بن القاسم
— بطل السند — وقتل قومه من بنى عقيل . . .

يقظة الضمير

لم تأخذ "سيتا" إلى هذه اللحظة ثمن الفدية التي افترتها على البطل الشهيد . . . لقد وعدها صالح بن عبد الرحمن ، وهو يخطط أطراف مؤامره ، أن يساعد على إطلاق سراحها ، وردها إلى قومها في بلاد السند ، لعلها تلقى هناك شمل أسرته متجمعاً بعد أن سكنت حركة الفتوح . ولعلها تعود فترى حبيبها الأمير السندي الذي كان مخاطباً لها ، ففرقت الأحداث ما بين الاثنين . . .

ولكن صالح بن عبد الرحمن كان في شغل عن الوعد الذي وعده به "سيتا" . . . لقد كان في هم من أمر الخراج وزيادته حتى يزيد في نظر الخليفة سليمان قدراً ومكانة ، وهل فكر عمال الخراج في أمر غيرهم مثل تفكيرهم في أمر أنفسهم ؟

ألم يكن عمال بني أمية قبل هذا العهد الذي نحن بضدد الكلام فيه يزيدون في الخراج ما يرهق الناس من أمرهم عسراً ، حتى ضجج الناس وضاقوا ؟ ألم تكن رغبة معاوية — أول خلفاء

هذه الدولة - أن يزيد الخراج في مصر على كل امرئ قيراطاً ،
فامتنع وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر قائلاً : كيف
أزيد عليهم ، وفي عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟

ألم يستقل الخليفة عبد الملك بن مروان قدر الخراج في عهده
على كل رأس ، فبعث إلى عامله ، فأحصى الجماجم ، وجعل
الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسب العادل سنة
كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وإدامه وكسوته ،
وطرح أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد
ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً
وجعلها طبقة واحدة ؟

لقد كان همّ عمال الخراج أن يرضوا الخليفة ، ولا يكون
رضاه إلا بالزيادة في الخراج . . . فقيم يفكر صالح بن
عبد الرحمن إذن في أمر سينا ابنة الملك ذاهر ، أو في غيره من
توافه الأمور ؟

* * *

جلست سينا ذات يوم في مكان خدمتها بدار صفوان
تتحدث مع جارية من جوارى الشيخ الثرى كان اشتراها من

نسي فارس وأغلى فيها الأثمان . وكان في الجارية الفارسية براعة
في الحديث ، ولطف في مداخل القول ، وكباء يبدو على بريق
عينها ، فوق ما حباها الله به من رقيق الجمال .

ولقد كانت الجارية الفارسية حديثة عهد بالاجتلاب من
بلادها ، ومرت في طريقها إلى الشام بمراحل ، كانت البصرة
حداها . وفي البصرة سمعت طائفة من الأخبار التي كانت
تلقفها أفواه الغادين والرائحين في هذا الثغر الإسلامي الذي كان
يوج بألوان من الخلق . . .

وسمعت الجارية الفارسية فيما سمعته أن بعض بلاد السند قد
انقضت على الدولة الأموية ، وأن ملوك السند رجعوا إلى
بالكهم ، وأن الأمير جيشبة بن ذاهر ملك السند المقتول قد رجع
إلى مدينة برهنا باذ . وجيشبة هذا هو أخو الأميرة سينا التي كان
لها مع ابن القاسم بطل السند شأن أي شأن . . . جلست سينا
ستمع إلى هذه الأنباء من رفيقها في الرق ، وزميلتها في دار
الشيخ صفوان . ولما ذكر اسم أخيها جيشبة على مسمعا عادت
بها الذكرة إلى ماض لا ينسى . . .

لقد كان جيشبة هذا أحد الشبان الثلاثة الذين كانت

تسلسل إليهم الأميرة سيتا في ظلمات الليل الأليل ، لتحمل إليهم في مطاوى الظلام كل ليلة أنباء عن محمد بن القاسم أمير السند وقائد جيوش المسلمين فيها . فهي إذن كانت عيناً على المسلمين وجاسوساً على جيوشهم وبطلهم في السند ، وكان العدل وعادل القصاص يقتضى أن يقطع رأسها حين انكشف أمرها ، ولكن البطل العربي الشاب أبدلها من القتل بالأسر .

مر هذا الماضي الذى أوجزناه في شريط طويل أمام عيني سيتا ، وتذكرت مروة محمد بن القاسم معها ، وحبها لها ، وصيانتها لشرفها ، وحفظه لعرضها . وكيف قلبت كل هذه الفضائل إلى أضدادها أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق ، لعلها تشفى حقدها على بطل السند لقتل والدها وضياع بلادها . أو لعلها تظفر من هذا الافتراء المحض بثمان بخس وهو أن يفك أسارها ، ويطلق سراحها ، وتعود إلى أرضها وقومها وخاطبها

وتذكرت سيتا فوق ذلك كرم ابن القاسم في معاملة أهلها وأهل السند عامة ، حتى بكوه يوم صدور أمير الخليفة الجديد سليمان بعزله من إمارة السند وقيادة الجيش ، فاحتقرت نفسها أن

يكون هذا جزاء من أحسن إليها ، ويربها ، واقتضاه الشرف العربي والخلق العربي أن يصون لها شرفها .

وأخذ ضميرها يؤنبها ، ويتنبه فيها شيئاً فشيئاً ، حتى بات يعذبها بوخزاته ، وألم حسابها . فلم تطلق سينا صبراً على عذاب لا يطاق بجانبه عذاب الأسر ، ووجهت الحديث إلى رفيقتها الجارية الفارسية قائلة :

— يا أختاه ! إن السند الذين تخبرين الآن عنهم هم قومي ، وجيشة هذا هو أخي ، وذاهر هو أبي الذي قتله محمد ابن القاسم حين فتح مملكتنا وأضاع ملكنا . . . والحق أن ابن القاسم لم يقتل أبي بيديه ، ولكنه قتل على يديه . . . قتله القاسم ابن ثعلبة بن عبد الله . فهو اسم سيظل عاكفاً على ذاكرتي حتى أوسد في التراب . . . ولا أدري يا أختاه لم حملت كل هذا الحقد على محمد بن القاسم ؟ لأن اسمه اقترن دائماً بمقتل والدي ذاهر الذي أحبيته بما لا تحب به ابنة أباه ؟ أم لأنه ضيع الملك الذي بناه أجدادي في مئات السنين ؟ أم لأنه شتت شمل أسرتي ففترقوا بعد أن كان شملهم جميعاً ، وأمرهم مجموعاً ؟ أم لأنه أرسل بي إلى الأسر في العراق والشام حتى بلغت بي الأيام هذا المقام ؟

لقد اعترفتُ أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج
الخليفة سليمان بأن محمد بن القاسم عبث بشرفي ، ولم يصن
عرضي . وما كنت - شهد الله - إلا متجنبة ومفترية على رجل
بريء لم أر الكرامة مكتملة إلا فيه ، ولا الشرف لاصقاً إلا به ،
ولا الأمانة إلا أولى فضائله . وإن ضميري الآن ليعذبني عذاباً
لا أظن أن أحداً من العالمين قد لقيه . فأشيري على يا أختاه !

- بماذا أشير عليك يا سينا وقد سبق السيف العذل ؟ أما
سمعت الأنباء التي تجاوبت بها أنحاء العراق ، واهتزت جنباته ،
واحتملها البريد إلى الشام بأن محمد بن القاسم - بطل السند -
قد قتله صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج لسامان ، وقتل معه
قوماً من بني عقيل ؟

- قتل محمد بن القاسم ! ولا تزال القرية التي افتربتها عليه
عالقة به ؟ ! إن هذا لن يكون ! من يُبلغ الخليفة سليمان بن
عبد الملك أنني اختلقت على محمد بن القاسم ما لم يتسرب به
الوهم إلى نبالة نفسه ، وشرف خلقه ؟ من يُبلغ الخليفة أنني
ادعيت على الرجل الشريف ما هو منه براء ؟ إن سماء السند
وأرضها ، وجبالها وأوديتها تشهد بأن محمد بن القاسم بريء مما

نسبته إليه ، واختلقته عليه .

ومضت الجارية الفارسية — وقد أذهلها ما سمعت من سينا وما رآته منها — إلى سيدها ومولاها صفوان ، وأبلغته ما حدث . فاستقدم سينا إليه واستوضحها الأمر ، فأعادت عليه ما قالته لزميلتها .

وانطلق صفوان إلى قصر الخليفة سليمان وأنبأه بما قالت سينا كلمة كلمة ، لم يخرم منه حرفاً واحداً .

وكان في سليمان عدالة وتحرر للإنصاف ، فقد اتخذ الرجل الطبيب والمسلم المثالي عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ، وعهد إليه بالخلافة من بعده ، لما لح فيه من الخير والفضل والحرص على مصالح المسلمين ، ولم يعهد بها إلى أحد من أبنائه ، كما كان يحرص أسلافه من الأمويين .

فاهتز الخليفة سليمان لما سمعه ، وأمر بسينا أن تحضر وأن تقر بين يديه ، فحضرت وأقرت ببراءة ابن القاسم مما اتهمته به أحقاداً وانتقاماً .

وعز مقتل محمد بن القاسم على سليمان مأخوذاً بفرية لم نخطر له على بال ، ولم تعلق له بوهم ، ولم يتلوث ضميره

بالتفكيك فيها بشهادة المفترية نفسها . فأمر بها أن تقتل كما تسببت في قتل بطل السند بالظلم والعدوان ، والإفك والبهتان ...

* * *

ومضت العصور متتابعة تحمل محمد بن القاسم بطل السند بعض الإنصاف حيناً ، وبعض الجحود أحياناً ، ففضن عليه التاريخ بإفاضة الحديث عنه كما يُفِيض على الفاتحين والأبطال . ولم يحمّد عليه التاريخ — بعد أن أدخل الملايين في الإسلام — إلا بتتف يسيرة من الأخبار لا تتكافأ مع ما قام به من جلائل الفتوح ، والجهاد في سبيل الله .

ولعل هذه الصفحات هي أول كتاب يكتب في تاريخ فاتح السند : محمد بن القاسم الثقفي ، رحمه الله ، وعطر ذكره ...

* * *

مصارع الفاتحين

في عهد الخليفة سليمان

لعل أعجب ما في عصر الخليفة سليمان بن عبد الملك - وهو لم يزد في خلافته على سنتين وستة أشهر - أن ثلاثة من أبطال الفتح الإسلامي لقوا مضارعهم على يديه أو بتوجيه منه.

وأول من قتل من الفاتحين المسلمين في عهده هو الفتي الثقي المغوار ، والبطل الشاب الجريء محمد بن القاسم الذي قرأنا من أنبائه وأخباره إلى الآن ما لا حاجة معه لزيادة ، ولا موضع لإعادة . . .

أما ثاني الأبطال المسلمين الذين قتلوا بسبب الخليفة سليمان ابن عبد الملك فهو المجاهد الغازي قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي فتح خراسان وتركستان وأوغل في بلاد الصين حتى خشيه ملوكها وتقربوا إليه ، والذي تدين له ألوف الألوف من المسلمين في قلب القارة الآسيوية بأنه نشر الإسلام فيهم ، وأعلى كلمة الله بينهم ، وأنشأ فيها المساجد ترتفع من مآذنها

أصوات المؤذنين ، وهم يدعون إلى الصلاة ، وإلى الفلاح ،
ويهتفون : الله أكبر ، الله أكبر ، فتستجيب لهم القلوب ،
وتخشع النفوس ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، كما كانوا
يدخلون في العهود الأولى للإسلام .

واختلف الناس في المصارع الذى لقيه القائد قتيبة بن مسلم
على يد رجال سليمان ، فمنهم من استفزع قتل مجاهد رفع الله به
ألوية الإسلام فوق كل مكان . . . ومنهم — كالمؤرخ ابن
كثير — من سوغ قتله بأنه زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة
رغم فيها أنفه . . . وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة
فأتى ميتة جاهلية . . . ولكن سبق له من صالح الأعمال ما قد
يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته .

والحق أن مصارع قتيبة كان شديداً على المسلمين الذين
أدركوه والذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا . . . ولقد رثاه الشعراء
مراثى رقيقة مفعجة حزينة تتفق مع بشاعة المصارع ، منهم
عبد الرحمن بن جمانة ، والطرماح ، والشاعر جرير الذى يروى
ابن خلكان المؤرخ أنه قال متفجعاً يلوم قاتليه :

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم من غزوه في غنيمة وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم..

* * *

أما ثالث الفاتحين الذين قتلوا في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك وبتهريض منه فهو عبد العزيز بن موسى بن نصير . ولقد كان عبد العزيز هذا أميراً على الأندلس بعد أن فتحها أبوه موسى بن نصير ، فضبط أمورها ، وحى ثغورها ، وأكمل فتح عدة من المدن الأندلسية . ولكن سليمان بن عبد الملك سخط على أبيه موسى بن نصير وهو بالشام ، فيقال إنه بعث إلى الجند بالأندلس في قتله . . . فدخلوا عليه المحراب وهو يقرأ الفاتحة بعد صلاة الصبح ، وضربوه بالسيوف ضربة واحدة ، وأرسلوا رأسه إلى الخليفة سليمان بدمشق ، فعرضها سليمان على أبيه فتجلد الرجل للمصيبة .

* * *

وجزع المسلمون هذه المرة أيضاً لمصرع جديد لفاتح وابن فاتح في عهد سليمان ، ولكنهم لا يزالون يذكرون أن مصرع

بطل السند كان أمعن في الغدر ، وأشد في الفرية التي أحاطت به ، والكذبة الشنعاء التي افتريت عليه .

ولعل المسلمين لا يزالون يرددون كلما ذكروا فتحاً ، أو شجاعة ، أو مروءة ، أو سؤدداً على حداثة من السن ، وميعة من الشباب . . . لعلهم لا يزالون يرددون قول الشاعر حمزة بن بيض الحنفي في رثاء بطل السند محمد بن القاسم :

إن المروءة والسباحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤددا من مولد !

ولعلهم في وفاتهم للذكرى أبطالهم ، والخالدين من رجالهم يذكرون قول الشاعر الآخر في رثاء البطل العظيم :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك في أشغال

دارالمعارف بمط

تقدم للأطفال والناشئة

قصص وأساطير من الهند

تصور تلك البلاد الساحرة بجبالها العالية وأنهارها المقدسة وحضارتها
العريقة ودياناتها المتعددة .

صدر منها :

- ١ - اليواقيت الأريج
- ٢ - حرب أبناء الأعمام
- ٣ - البراهمة الأربعة
- ٤ - آلهة الهند
- ٥ - أكرم الأمراء
- ٦ - حياة بوذا

ثمان النسخة من كل كتاب ١٣ قرشاً

Bibliotheca Alexandrina



0681898

خزالمعارف دارالمعارف